عصر التنوير

La Promenade du

ديدرو

نزهة المرتاب

ترجمته عن الفرنسية

مريم دياب



طُبع في سوريا

نزهة المرتاب (الدروب)
الأعمال الكاملة لديدرو

الناشر: الدار الليبرالية/السويد
Liberal Library - Sweden
الطبعة الأولى، 2023

Sverige _ Östergötland _ Rörvassvägen 8
582 76
Linköping
رقم الترخيص: 802540-4875
+46 72 047 17 86 / +963968334411
llliberallibrary@gmail. com

Liberal Library

إن الدار الليبرالية غير مسؤولة بشكل مباشر عن آراء الكتاب إنما تنشر ثقافة مفتوحة بحيادية، وكُل كتاب يعبر عن آراء مؤلفه وإن كنا لا ننشر إلا ما نحن مقتنعون بأهميته ثقافياً سواء وافقنا الكاتب أم لا، ونحن ملتزمون بقيم الحرية الفكرية بأعلى مستوياتها والاختلاف حالة طبيعية فلا نلزم أحد بقراءة منشوراتنا.

شعارنا

حرية الاختيار تعني اختيار الحرية، فالحرية لا تختار إلا ذاتها.

«نزهة المرتاب أو الدروب»
(مسيرة المشككين)
للمفكر الفرنسي دوني ديدرو

(الأعمال الكاملة 2)

نقلها إلى العربية:

مريم دياب



2023

مذكرات
عن حياة وأعمال
Diderot ديدرو
ترويها ابنته السيدة De Vandeul دو فاندال

وُلِدَ دوني ديدرو (Denis DIDEROT) في لانغر في منطقة الشامباين (Champagne) في شهر أكتوبر/ تشرين الأول من عام 1713.

عمل والده في صناعة السكاكين؛ تلك المهنة التي امتهنتها العائلة لأكثر من مائتي عام، ولم تمتهن غيرها، اكتسب والده ثقة الناس بما تمتع به من مهارة في الأداء وحزم في الطباع حتى إنَّه كان لديه القدرة على الإبداع في عمله.

دوني؛ الابن الأكبر بين أبنائه كان معهوداً للكنيسة حيث ترك له أحد أعمامه منصبه الكنسي.

كان دوني منذ صغره رقيق الطبع، مرهف الحس، فحين شهد تنفيذاً لحكم إعدام وسط الجموع، وكان آنذاك بعمر ثلاث سنوات أصابه مرض شديد، وعلى أثر ذلك عانى من يرقان مميت، بدأ الدراسة في اليسوعيَّة التابعة لبلدته في الثامنة من عمره، بقي هناك حتى عمر الاثنتي عشرة سنة حيث أصبح إكليريكي[1].

ما يميز تلك الفترة (فترة تعلمه في اليسوعيَّة) كما رواها لي أبي هو نزاع نشب بينه وبين أصدقائه كاد أن يتسبب بفصله من المدرسة، كان ذلك يوم ممارسة الشعائر الدينيَّة، وتوزيع الجوائز، لم يحتمل فكرة أن يقضي هذا الوقت في بيت والديه وأن يتسبب بحزنهما...

اجتاز البوابة في لحظة اجتماع الحشد وبدأ يركض بكلّ

(1) طالب غي مدرسة إكليريكية، وهي المدرسة التي تعلم الفتيان للارتقاء إلى الكهنوت.

قواه لكن أحدهم تبعه حتى أصابه بشيء يشبه الحربة الصغيرة متسبباً له بجرح في خاصرته، إلا أنَّ ذلك لم يثنيه عن عزيمته حتى وصل إلى المكان الذي يستحق أن يشغله: لقد حصد جائزة التأليف والشعر، وكذلك جائزة الاستذكار، جوائز استحقها بجدارة... فكيف لرغبة رؤسائه بعقابه أن تطغى على عدالتهم إزاء تفوقه واستحقاقه لهذه الجوائز، فقدم له الكثير من الكتب والعديد من التيجان التي مررها حتى عنقه إذ لم يقو على حملها جميعاً، عندما عاد إلى بيته كانت أمه بانتظاره أمام باب البيت، رأته قادماً من وسط الساحة العامَّة محملاً بالجوائز، ومحاطاً بأصدقائه، فاستقبلوه وعانقوه واحتفلوا به.

ولد متقداً بالحياة، محباً للصيد، ولكن على الرغم من كونه دائم التفوق في واجباته المدرسيَّة إلا أنّه كان مقصراً متهاوناً أعيته احتجاجات رؤسائه، فعبر لوالده ذات يوم عن عدم رغبته بمتابعة دراسته.

- قال جدي: هذا يعني أنَّك تريد أن تصبحَ صانع سكاكين؟

- قال أبي: نعم من كلّ قلبي.

قدَّم له (مريول) زي العمل، وجلس بجانب أبيه، لقد أفسد كلّ ما مسته يداه من سكاكين وغيرها من أدوات، بعد مضي أربعة إلى خمسة أيام صعد والدي إلى غرفته أمسك بكتبه مقرراً العودة إلى المدرسة.

- قال أبي لوالده: أفضل أن ينفذ صبري في اليسوعية على أن أحيا حياة الملل هذه...

وبعدها تابع دراسته دون أيّ انقطاع...

سريعاً ما استشعر المعلمون بالفائدة التي يمكن أن يقدمها هذا التلميذ لهيئة اليسوعيّة، فاستخدموا الطعم الذي لا يمكن مقاومته وهو السفر والحريّة، فحملوه على ترك منزل الأهل ليلتحق باليسوعيَّة في باريس مع أحد التلاميذ المقربين منه.

كان لدى والدي ابن عم بمنزلة الصديق وكان بنفس عمره فأودعه سره وألزمه مرافقته لليسوعيَّة ...إلا أنَّه

«(أقصد ابن عمه) لم يحتفظ بالسر وأخبر جدي بما نوى ديدرو.

في يوم الرحيل المرتقب التزم جدي بصمت مطبق، وأخذ مفاتيح البوابة الرئيسة للبيت، وعند سماع حركة ابنه ينزل تقدم أمامه، وسأله إلى أين هو ذاهب في منتصف الليل.

قال والدي: إلى باريس حيث عليَّ الالتحاق باليسوعيَّة.

قال جدي: لن يكون لك هذا، فلننم الآن، وغداً صباحاً ستكون رغباتك مستجابة، في اليوم التالي حجز جدي مقعدين في سيارة أجرة وصحبه إلى باريس إلى مدرسة "Harcourt" حيث التحق بالمدرسة، واستأذن من والده بالانصراف.

لقد أحبَّ جدي ذاك الطفل حباً جماً، فكيف يتركه دون أن يطمئن على مصيره، فمكث خمسة عشر يوماً متواصلة في نزل دون أن يرى ابنه طيلة هذه المدة التي قضاها، ودون أن يرى ما اعتاد رؤيته مقاتلاً الملل والوقت، غالباً ما كان

أبـي يصرح بأنَّ علامات الطيبة والرقة عند جدي كان بإمكانها أن تذهب به إلى نهاية العالم إن طلب منه ذلك.

قال جدي: «جئت لأطمئن عليك إن كنت سعيداً مع رؤسائك وراضياً عمَّا يقدم لك من طعام وغيره، وهل أنت راض عن نفسك؟ إن لم تكن مرتاحاً بإمكاننا العودة إلى جوار أمك، وإن آثرت البقاء هنا فإنِّي سأعانقك وأبارك لك في خيارك...

طمأنه والدي بأنَّه بخير، وأنَّ هذا المكان يروق له تماماً، فاستأذنه بالانصراف، وقبل الرحيل مر عند الرئيس ليعرف إن كان راضياً عن ولده كرضا ابنه عن المكان.

«بالتأكيد يا سيدي، إنَّه تلميذ ممتاز إلا أنَّه منذ ثمانية أيام قمنا بتعنيفه بشدة، وإنَّنا لن نحتفظ به معنا طويلاً إن استمرَّ بسلوكه هذا!» والقصة كانت:

وجد أبي من بين أصدقائه الجدد شاباً حزيناً، فسأله عمَّا يسبب له هذا الكدر، فأقرَّ له بأنَّه يتوجب عليه أن يقوم بواجب مدرسيّ (تأليف قطعة شعريَّة) ليوم غد، وهو

مغموم من هذه المهمة.

عرض عليه أبي القيام بهذا الواجب بدلاً منه، فما كان من هذا الشاب إلا أن سلَّم أبي الورقة ودسّها في جيب ردائه، تبعه أبي ثم قام بالتأليف؛ كان التأليفُ جيداً جداً، وهذا ما وجده المعلمون إلا أنَّه لا يمكن أن يكون نتاج من قام بتقديمه، فأجبروا الشاب على تسمية مؤلفه تحت عقوبة الفصل النهائيّ من المدرسة في حال التكتم.

اعترف الشاب أنَّ القادم الجديد هو من قام بذلك، تم توبيخ كليهما بشدَّة، لذلك عدل أبي عن القيام بواجبات الآخرين ليكتفي بأداء واجباته فقط، وما كان سبباً لتلك البلبلة كان عبارة عن مهمة تحويل خطاب الثعبان لحواء حين أراد إغواءها إلى قطعة شعريَّة؛ إنَّه لموضوع غريب عجيب لصبية صغار!

في مدرسة Harcourt صنع أبي لنفسه صداقات عديدة، فقد عقد صداقة وثيقة مع الأب De Bernit شاعراً في ذلك الحين ليصبح بعدها كاردينالا، كانا

يتناولان طعام العشاء عند المطعم القريب بست قروش للوجبة الواحدة، غالباً ما كنت أسمعه يشيد بجماليَّة تلك الوجبات!

* * *

انتهت دراسته في هذه المدرسة، فكتب جدي إلى السيد Clément المحامي العام في باريس وابن بلده ليأخذه على عاتقه ويجعله يدرس المحاماة والقانون، مكث سنتين عنده إلا أنَّ فرز القضايا وعمليَّات الجرد لم تستطع أن تشكل حافزاً لديه، فكان يختلس من معلمه ما أمكن من وقت ليتعلم اللغة اللاتينيَّة والإغريقيَّة، فهو لا يعرفهما حقّ المعرفة على حدّ تعبيره، وليتعلم أيضاً الرياضيات التي يعشقها حد الجنون بالإضافة إلى اللغة الإيطاليَّة والإنكليزيّة...

أسلم نفسه تماماً لعشقه للآداب ممَّا دفع معلمه إلى إخبار والده بما يجري، فكلف جدي صديقه بأن يقترح على ابنه مهنة يمارسها، واتخاذ قرار عاجل ليصبح طبيباً أو محامياً

عاماً أو محامياً، فطلب أبي مهلة للتفكير وكان له ذلك.

بعد انقضاء تلك المهلة قال والدي إنَّ مهنة الطب لا تروق له، فهو لا يريد أن يكون سبباً في موت أيّ إنسان أمَّا عن مهنة المحامي العام فهي صعبة بالنسبة له، وكان من الممكن أن يمارس مهنة المحاماة لو لا أنَّ فكرة قضاء حياته منشغلاً بقضايا الناس تثير عنده نفوراً لا يقهر.

قال السيد Clément: ماذا تريد أن تصبح؟

أجاب أبي: لا شيء البتة، أحبُّ الدراسة ذلك يسعدني ويرضيني، ولن أطلبَ شيئاً آخر.

كتب السيد Clément هذا الجواب لجدي، فأجابه الأخير باعتبار أنَّ ابنه لا يرغب بفعل شيء، فليقطع عنه معاشه، وليبلغه بأنَّه لن يسدد شيئاً من نفقاته.

أمَّا ما جاء في رسالة جدي الموجهة لأبي، فلقد أمره فيها إمَّا أن يختار مهنة له مؤكداً على عدم عرقلة هذا الخيار وإمَّا العودة النهائيَّة في الأسبوع ذاته إلى الديار.

لم يعر والدي اهتماماً لتلك الأوامر معولاً على عطف جدي وحنانه، وفي الوقت ذاته لم يرغب أن يبقى على عاتق السيد Clément فغادر منزله واستأجر غرفة مفروشة، وهناك قرر أن يوسع من معارفه بالقليل ممَّا لديه من مال، وكتب الكثير من الرسائل لجدي، وكان يصله الرد نفسه إمَّا عمل يفيد المجتمع وإمَّا العودة إلى الديار.

الأم بحنوها وعطفها كان موقفها مختلفاً، فكانت ترسل له بعض النقود مع خادمة التي كان عليها قطع ستين فرسخاً مشياً على الأقدام، وكانت تضيف (أقصد الخادمة) على هذا المبلغ كلّ ما استطاعت أن تدخره أيضاً، ثم تعود قاطعة المسافة نفسها على الأقدام، لقد أدَّت هذه المهمة ثلاث مرات، رأيتها منذ عدة سنوات، وكانت تتحدث عن أبي وهي تذرف الدموع؛ إذ كانت ترغب في رؤيته مجدداً، وقد ندمت لأنَّها لم تمتلك القوة لتكمل ما بدأت به من أجل سيدها الشاب، أمضت ستين عاماً في الخدمة لم تنل لا من طيبتها ولا من رهافة حسها.

بالعودة لوالدي، لا شيء استطاع أن يغيره لا البعد عن العائلة ولا حالة العوز الشديدة، أمضى عشر سنوات كاملة منصرفاً فيها إلى نفسه، منهمكاً في العمل، والألم، والمتعة، والضجر، وأخيراً في الحاجة... أحياناً تراه ثملاً من شدة السعادة، وأحياناً أخرى غارقاً في أفكاره الأكثر مرارة، لا يملك سوى علومه التي تسببت بغضب جدي، أمَّا عن المهن التي مارسها في تلك الفترة، فقد درس الرياضيات، وإن وجد التلميذ بفكر متقد كان يعمل على تدريسه لنهار كامل، وإن لم تتوفر عنده هذه الصفة كان لا يعاود تدريسه.

كان يقدم العظات، فقد طلب منه أحد المبشرين أن يقدم عظات للجالية البرتغالية، ودفع له مقابل ذلك خمسين قطعة نقديَّة؛ هذا العمل بالنسبة لوالدي من أفضل الأشياء التي مارسها طيلة حياته.

كان السيد Randon رجل الأعمال يبحث عن معلم ومربٍ لأبنائه فأرشدوه إلى أبي، وافق أبي على طلبه وطلب

مبلغاً حوالي 1500 ليرة بالسنة، فكان ينهض كل صباح ليعلم أولاده من كل ما امتلك من علوم ثم يتنزه معهم ولا يستقبل أحداً، ولا يزور أحداً، وكان لا يتركهم ولا لحظة واحدة إلا لشأن خاص به فقط، على هذا النحو كانت حياته طيلة ثلاثة أشهر، لكن من هو ذلك الجبار جسدياً ونفسياً الذي يستطيع أن يحتمل هذا النمط من الحياة، فقرر أبي أن يقابل السيد Randon ويتحدث إليه:

«أتيت إليكم يا سيدي لأطلب منكم البحث عن رجل آخر يحل محلي فلن أستطيع البقاء أكثر».

«لكن يا سيد ديدرو، ما الذي أساء لكم، هل ترون أنَّ أجركم قليل فأضاعفه، أو أنَّ الأمر متعلق بسكنكم أو غذائكم؟ لا شيء عندي يساوي الاحتفاظ بكم ...»

«لقد صنعت من أطفالكم رجالاً، لكنَّني مع مرر الوقت أشعر أنَّني أتحول لطفل، أنا في بيتكم غني جداً، ومرتاح جداً، ليست ظروف العيش الأفضل هي مطمحي إنَّما

رغبتي تكمن في عيش لا موت فيه.»

غادر أبي منزل السيد Randon عائداً إلى كوخه، مسلماً نفسه من جديد إلى البؤس والدراسة، في تلك الفترة نشأت بعض الصداقات مع أبي، وكان كوخه ملكاً لأول زائر ليستولي عليه، وكان يفعل الشيء ذاته مع أصدقائه، فإن ذهب لعند أحدهم كان يتناول العشاء، وإن أراد كتابة شيء ما كان يبقى لديه حتى إنهاء المهمة.

* * *

في دير الرهبان (الكراملة)[1] كان هناك راهب من مدينة لانغر، تربطه قرابة بأبي يدعى «الأخ الملاك»؛ رجل علم وفكر، لكن طموحه بجعل هيئة الدير موضع تقدير واعتبار كان مصدر غم وهم، ولجعله مشهوراً أي الدير كان يعمل على تجنيد شبان صغار بالسن، فيقدم لهم كلّ

---

(1) يعرفون باسم الكرمليين، وهي رهبنة في الكنيسة الكاثوليكيّة تأسست في القرن الثاني عشر، وتعتمد روحانيتها على النبي الياس ومريم العذراء بوجه خاص.

ما أتيح له من وسائل بإمكانها تخليصهم من جميع المتاعب التي أوقعوا أنفسهم بها، فيعرض عليهم حياة الاعتزال في الدير واعتناق حياة الرهبنة.

سمع أبي عن هذا الرجل، واعتقد أنَّ بإمكانه أن يجني فائدة ما من زيارته، فكانت الزيارة الأولى تحت حجة رؤية الدير والمكتبة، تحدث أبي في هذه الزيارة عن رغبته في ترك حياة العالم الصاخبة ليحظى بحياة فيها الهدوء والسكينة، أنهى زيارته بعبارات اللباقة والتهذيب، وفي الزيارة الثانية كان هناك مزيد من الثقة دفعت أبي ليسر إلى الراهب عن أسباب الخلاف بينه وبين أبيه، وعن نيته في التصالح معه، تبع ذلك مزيد من الاعترافات وشجع الراهب خيار أبي في العزلة، وعرض عليه الوساطة لدى أهله، اعترف أبي أمام الراهب بنيته الاعتزال بإحدى الأديرة، لكن عليه قبل ذلك أن ينجز بعض الأعمال الشائكة الطويلة.

بداية كان عليه أن يعمل طويلاً ليجني بعض المال، لقد اقتاد هذا الكائن البائس إلى حياة لم تترك له أيّ مصدر

للعيش الكريم إلا أنَّه لا يستطيع الانفصال عن تلك الحياة دون الشعور بالندم والحسرة، خشي الراهب من المماطلة، فقال لأبي بما أنَّه قرر من تلقاء نفسه اعتناق حياة الرهبنة، فبإمكانه أن يجرب منزله الخاص، وأشاد بجمال الدير وكفاءة أعضائه، وعده أبي بأن يفكر بالموضوع، وأن يرجئ قراره لحين إنهاء أعماله حينها خشي الراهب على فريسته من الهروب، فقال:

«لا جدوى من أن تحيا حياة متعبة وغير لائقة، تفضل 1200فرنك عندما تصبح بيننا، فإنَّ والدك سيسعد بذلك، ولن يرفض أن يسدد لك هذا المبلغ، وكلّ النفقات التي يتوجب عليك دفعها لاحقا.»

دفع أبي ديونه، وعاد إلى «الأخ الملاك» بوجه حزين يعتريه الهم والقلق.

لم يكن أبي قد حسم أمره بصورة نهائيَّة بشأن التحاقه بالدير، فهو لا يريد خداع أحد، كان يرغب بأن يحصل الأخ الملاك على مبلغ صغير من أبيه ليدفع إقامته وملبسه

وطعامه.

قال الراهب: «حسناً، إنّ والدك سيكون مستعداً لتسديد نفقاتك عندما تعيش حياة لائقة ومناسبة لك حينها سيثق بمشاريعك أكثر، كن راهباً، وكلّ شيء سيسير على ما يرام.

سلم أبي الراهب حاشية ذكر فيها ما يحتاج من مال لتغطية نفقات أكله ومشربه وملبسه، فقبض من الراهب حوالي ثمانية إلى تسعمائة فرنك، ووعده أن يعود ليشغل مكانه في الدير.

كانت رغبته حقيقيَّة في الدخول إلى بيته، كل شيء كان جاهزاً ولا ينقصه إلا القليل، مع أنَّه لم يمتلك كتباً ولا ملابس ولا أثاثاً، فهو من أسرة متواضعة، لذلك لم يكن يرغب بالدخول الى هيئة الدير مستجدياً.

قال الأخ الملاك: ليس عليك سوى الدخول إلى البيت، وسأتكفل بإعطائك كل ما يلزم غداً، علينا أن ننهي ذلك دون تلكؤ.

قال أبي: إذاً لن تعطيني مالاً؟

أجابه الخ الملاك: بالطبع لا.

قال أبي: لا أريد أن أصبح راهباً (carme) اكتب لأبي، وهو سيدفع لك.

استشاط الراهب غضباً، وكتب لجدي وأخبره ما حدث، دفع جدي المال معتبراً تصرف أبي حماقة ممَّا لم يسهم في إعادة الوفاق بينه وبين أبي لاحقاً.

عاهد نفسه أن يتخلى عن جميع اهتماماته وهجر كلّ ما شغفت به روحه غارقاً في حزن عميق، باحثاً عن الوحدة، لكنَّه ما أن يقرأ سطراً لهوميروس أو يحل مسألة رياضيات أو فكرة لنيوتن، لتتحطم في لحظة واحدة كلّ تلك الوعود.

إنَّ ما يستحوذ على عبقريته هو ما يعيد لروحه الأمن والسكينة.

في يوم ثلاثاء ملبد بالغيوم، نهض ولم يجد في جيبه ما يكفي لوجبة غداء، فعاد بذاكرته إلى أيام الطفولة حيث

كان محاطاً بأهل أحبوه، فجعله ذلك أكثر حزناً، ولم يعد لديه الرغبة بالعمل، فقرَّر الخروج علّه يسلي النفس، وتمشى في شوارع Les Invalides مروراً بالمكتبة الملكيَّة ثم إلى حديقة النبات، يمكننا أن ننسى الضجر، لكن ماذا يمكننا أن نفعل مع إحساس الجوع؟

عاد إلى كوخه وعند دخوله قدمت له المضيفة بعضاً من الخبز المحمص مع القليل من النبيذ، ثم نام بعدها...

قال لنفسه: «أقسم أنِّي إن امتلكت يوماً شيئاً ما فلن أرد محتاجاً أو معوزاً، ولن أحكم على من في مثل حالي قضاء يوم شاق كيومي هذا».

أعتقد أنَّ أحداً استطاع أن يلتزم بهذا القسم، كما فعل أبي.

* * *

في عام 1741 تعرف أبي على أمي.

الآنسة مالفيل Malvillé، جدتي من طرف أمي،

الابنة الوحيدة لرجل من مدينة Mans ، قد مات أثناء عمله، تزوجت زواج حبّ من صاحب معمل أقمشة؛ رجل غني ذو مكانة يدعى شامبيان Champion.

كان يخشى المضاربات التي أضرت بأعماله، وبدلاً من التخلي عن مشاريعه جدد أعماله ممَّا تسبب فيما بعد بإفلاسه تماماً، والذي بدوره أودى بحياته من شدة اليأس والإحباط.

أصبحت السيدة Champion أرملة، فقدمت إلى باريس مع ابنتها ذات الثلاثة أعوام، صديقة من صديقات الطفولة قد أمنت لجدتي مأوى، ووضعت أمي في دير لتتعلم هناك ما يغنيها عن حاجة الناس، وحين فقدت جدتي صديقتها قامت بسحب أمي من الدير، وكان عمرها ستة عشر عاما لتقيم في نزل صغير معها، ويعملان معاً في تجارة الدانتيل والقطنيات.

عاشتا على هذا النحو حياة هانئة سعيدة خلال عشر إلى اثنتي عشرة سنة، امتلكتا أثاثاً لائقاً وادخرتا حوالي ألفي

قطعة نقديَّة.

كانت أمي امرأة جميلة ممشوقة القد، تتمتع بأخلاق عالية وكانت حكيمة وتقية، وقد رغب الكثير من التجار بالزواج منها، لكنَّها كانت تفضل عملها وحريتها على الزواج من رجل لا تحبه، والقدر ساق أبي ليسكن في غرفة صغيرة من منزلها، وهناك رآها وتمنى رؤيتها مجدداً.

تعيش هاتان السيدتان في وحدة كبيرة، ومن الصعب أن تستقبلا رجلاً بعمره، فقدم لزيارتهما بصفة جار وطلب السماح بمعاودة الزيارة محاولاً أن يضفي على بداية تلك الرابطة صفة الأب لهذه العائلة.

وباعتبار أنَّه من غير الممكن أن يقد م لأمي اهتماماً وعناية فائقين دون حجة واضحة فقال لهما بأنَّه منذور لحياة الكهنوتيَّة وسيلتحق بإكليريكية قريباً «Saint Nicolas» وبذلك فهو سيحتاج لبعض القطنيات تكفي مؤونة، وطلب منهما التكفل بإعداد ما يلزم، وكانت تلك تفاصيل صغيرة محببة لأناس يتحابون دون أن يبوح

أحدهما للآخر، وبدافع تلك الحجج كان يأتي لزيارتهما ثلاث إلى أربع مرات في الأسبوع لتؤول إلى زيارات يوميَّة.

عند القيام بإصلاحات في المنزل الذي كانوا يسكنوه اضطروا لاستئجار بيت آخر ليجد أبي نفسه مستأجراً غرفة فوق تلك الشقة، كلاهما أكدا لي (أقصد أبي وأمي) آلاف المرات أنَّ الصدفة وحدها هي من قامت بترتيب الأحداث على هذا النحو ليجدا نفسيهما في نفس المنزل للمرة الثانية.

كانتا «جدتي وأمي» تحدثانه عن قصة التحاقه بالإكليريكية دائماً، لكن حين شعر أنَّ أمي تستلطفه، اعترف لها بأنَّه نسج هذه القصة من خياله لتكون ذريعة له للدخول لحياتها مؤكداً لها عزمه الزواج منها، أمَّا جدتي التي أحبته جداً فكانت ترى أنَّه من غير المنطقي الزواج من رجل لا يعمل، وإن امتلك فكراً نيراً إلا أنَّ كلامه المعسول قلب رأساً على عقب دماغ ابنتها التي بدورها صرحت بأنَّه الرجل الوحيد الذي أحبته، وكان الاتفاق

أن يذهب أبي إلى مسقط رأسه لانغر «Langres» لإبلاغ أهله عن قرار زواجه، وأن يعود محملاً برضا وقبول أهله مع أوراقه الرسميَّة.

وصل بالفعل إلى بيت أهله، ورغم طول الغياب لم يزده ذلك إلا محبة لدى جدي الذي اعتقد أنَّ ابنه عاد ليقيم بينهم، ويعيش حياة بسيطة هانئة، يمكننا توقع الطريقة التي قوبل بها مشروع زواجه، فنعت بالمجنون، وأُمِر تحت عقوبة لعنة والديه بالعدول عن ذلك التهور.

لم ينطق أبي بكلمة وعاد إلى باريس صباحاً، عرض على أمي ما كان من مفاوضات مع والده مع بعض التحفظ الذي اعتقد أنَّه ضروريّ لإتمام مشروعه، أمَّا أمي فقد أكدت لأبي أنَّها لن تكون فرداً من عائلة لا تكن لها الاحترام الذي تستحقه، فرجته أن يبتعد وتوقفت عن استقباله رغم معاناتها وعذاباتها، وأرسلت أمي لتعرف وتطمئن على حال أبي لتعلم أنَّه يعيش حياة بائسة دون طعام ودون أيَّة عناية، فقررت الذهاب إليه ووعدته

بالزواج، وما إن استعاد عافيته حتى تمَّ الزواج ليلاً في كنيسة saint pierre عام 1744.

* * *

كان أبي ذا طبع غيور ليسمح لأمي المتابعة في عمل يقتضي منها لقاء الغرباء والتعاطي معهم، فرجاها أن تترك العمل، كم كان صعبا عليها القبول! كانت فكرة أن تترك مهنتها التي تلبي حاجاتها وحاجات أمها التي أصبحت مسنة بمثابة تعذيب كبير لها، لكن انطلاقاً من قناعتها بأنَّ هذه التضحية ستجلب سعادة ورضا زوجها وافقت، وتم الأمر.

كان أبي يتناول طعامه في المدينة، وكانت وجبة أمي تقتصر على بعض الخبز غالباً بنية مضاعفة وجبته في اليوم التالي، أمَّا بالنسبة للقهوة فهي بذخ باهظ التكاليف لزوجين بمثل وضعهما إلا أنَّها لم ترغب بأن يحرم منها فكانت تعطيه عدة قروش ليشرب قهوته في مقهى لاريجانس La Régence، هناك قدمت له فرصة عمل

لترجمة كتاب تاريخ اليونان L'histoire de La Grèce بأجزائه الثلاثة مقابل 100قطعة نقديَّة؛ هذا المبلغ الذي أعاد للبيت حياة الرفاهية، ثم عرض عليه ترجمة «قاموس الطب» وحين بدأ بعمله هذا اقتادت له الصدفة رجلين: أحدهما يدعى Toussaint مؤلف لعمل أدبيّ يدعى «الأخلاق»، والآخر رجل غير معروف، وما يجمع هذان الرجلان أنّهما دون عمل ويبحثان عن مورد للرزق، وشاركهم أبي عمله حارماً نفسه من ثلثي المبلغ الذي كان يفترض أن يجنيه من هذه الترجمة.

كانت تلك نقطة الانطلاق، فكون مشروع تحت اسم «دائرة المعارف» أو ما يمكن تسميته الموسوعة[1] بالمشاركة مع أصحاب المكتبات الذين كان يتعاطى معهم؛ هؤلاء «أقصد أصحاب المكتبات» كانوا يعدون هذا المشروع وسيلة للثراء، أمَّا أبي فكانت تغمره سعادة كبيرة بممارسة مواهبه وبالتعرف على جميع أنواع الفنون

(1) عمل ضخم بإدارة ديدرو وصديقه دالامبير، ضمت موسوعة عن العلوم والفن بين عامي 1751إلى 1772.

من خلال العمل على ترجمتها ووصفها وصفاً دقيقاً متقناً، وأوّل اتفاقية بينه وبين أصحاب المكاتب كانت إصدار 1200 كتاب سنوياً، ومنذ ذلك الوقت لم يشغل بال أبي ولا أمي تحصيل الثروة، كانوا مطمئنين على مصيرهم والسعادة تغمر دارهم.

لقد أنجبت أمي طفلة، وهي حامل للمرة الثانية، رغم كل التدابير والاحتياطات التي اتخذتها أمي وحياة الوحدة التي عاشتها من أجل أن توحي للناس بأنَّها غير متزوجة وأنّ الشخص الذي تقيم معه أقصد أبي هو أخوها، إلا أنَّ عائلة جدي وصلها أنَّ أبي يعيش مع امرأتين، فكان يصله من جدي رسائل قاسية ومنددة لا تخلو من التعرض لسمعة أمي.

ارتأى أنَّ النقاشات عبر الرسائل قد تكون غير واضحة ومتعبة، فأعلن أبي لجدي ولادة ابنه الثاني، ونيته إرسال أمي إلى أهله قائلاً: «لقد غادرت البارحة، وستصلكم بعد ثلاثة أيام، حدثوها بما شئتم وأعيدوها متى سئمتم منها».

يا لها من طريقة غريبة للتفاهم، فقد قرروا إرسال أخت أبي في استقبالها، للوهلة الأولى كان لقاءً غريباً بارداً: الأمسية الأولى بدت لها قاسية بعض الشيء لكنَّها في صباح اليوم التالي ما إن استيقظت حتى قصدت جدي وعاملته برقة وتهذيب كما لو كان والدها الحقيقيّ، وما قدمته من احترام وود كان كافياً ليثير مشاعر الإعجاب والرضا لدى هذا الرجل المسن الطيب.

بدأت تعمل ولم ترفض القيام بكل ما بوسعه أن يفضي برضا العائلة وكسبها مودتها ومحبتها، وبساطتها، وورعها، ومواهبها في إدارة شؤون البيت، كل ذلك كان ضامناً لمودتهم لها.

كانت النتيجة أنَّهم وعدوا بإعطاء أبي حصته من دخل العائلة الذي كان قد حرم منه في السابق، بقيت لديهم ثلاثة أشهر وحين عادت كانت محملة بكلّ ما يسر النفس ويثير الرضا، إلا أنَّ هذه الرحلة التي تلتها أخرى سببت لأمي الكثير من الدموع وكانت بمثابة نذير شؤم بددت

راحة أمي وهناءتها: ارتبط أبي في الفترة التي قضتها أمي في الريف بعلاقة مع السيدة Puisieux، فلقد شغف بهذه السيدة طيلة عشر سنوات قادمة زعزعت كيانه واستقراره الداخليّ.

في تلك الأثناء فقدت أمي جدتي؛ رفيقتها الوحيدة تاركة أمي وحيدة، وضاعف بعد وغياب أبي ألم الفقد لديها، وأصبحت بطبع حزين بائس وبمزاج قاس، إلا أنّها لم تتوقف عن أداء واجباتها كأم وكزوجة بشجاعة وثبات لا تمتلكها العديد من النساء، ولو كان بإمكانها أن تخفف من درجة التعلق والحنين إزاء والدي لكانت حياتها أفضل ومنذ غيابه وهي تتحسر على كل تلك الآلام التي سببها لها كما لو كانت حياتها معه تملؤها الأفراح.

كانت السيدة puisieux امرأة فقيرة، وكانت تطلب منه المال باستمرار: نشر مؤلفه «الاستحقاق و الفضيلة le mérite et la vertu» وباعه بـ 50 قطعة نقديَّة وأعطاها المبلغ، سرعان ما طلبت المزيد من المال وكان

حينها قد أصدر كتابه «أفكار فلسفيَّة «الذي باعه ب 50 قطعة نقدية أيضاً، وأعطاها المبلغ، وبعد تبديد هذا المال، تجدد الطلب وتجددت المهمة التي كانت هذه المرة تأليف كتاب تفسير الطبيعة «l'Interprétation de la nature» الذي بيع بنفس السعر.

كانت روايات Crébillon[1] تلقى رواجاً في تلك الأثناء فتحدث أبي مع السيدة puisieux عن سهولة تأليف هذا النوع من الأعمال إذ يكفي إيجاد فكرة مناسبة، بطريقة أن تحلّ تحرريّة الفكر محل الذوق، وبعد مرور خمسة عشر يوماً جاءها بكتابه الجواهر المكشوفة les bijoux indiscrets بمبلغ 50 قطعة نقديَّة.

بدأت دائرة المعارف الخاصة به/ الموسوعة تثير بعض الضجة، فلقد احتجت هيئة الكنيسة على الجرأة التي تحتويها مقالات الفلسفة والميتافيزيقا، بدأ أبي يخرج من الظلمة إلى النور؛ تلك الظلمة التي كانت محببة

(1) روائيّ فرنسّي ولد عام 1707 ابن موسيقي معروف.

لأبي، وذلك حين لفتت أطروحة الأب Prades انتباه الحكومة، وكان الجزء الثالث منها من تأليف أبي، وأُنكِرَ وجود الله في هذا العمل ممَّا جعل من هذه القضيَّة أمراً يستوجب إبعاد الأب قسراً عن البلاد.

خشي أبي من التأثيرات اللاحقة لذلك الحدث، عندما تجددت طلبات السيدة Puisieux، فألف وقتها «رسائل عن الصم والعميان» في هذا النوع من الأعمال كان يراقب عن قرب حالات من الواقع من شأنها أن تضيف إيضاحات على العمل، ومنها أذكر:

كان لدى أحد الأطباء مريضاً ولد أعمى؛ أي إنَّه لم ير قط النور في حياته، وقد أجرى له عمليّة ساد، وكان يفترض أن يرفع الضماد أمام جمع من الأدباء ورجال فن وكان أبي من بين المدعوين.

كان يتوقع أن تكون تجربة مثيرة للاهتمام بقدر ماهي جديدة ليرى من خلالها التأثيرات الأولى للضوء على إنسان لم ير النور في حياته: حين رفع الضماد تبين من

خلال حديث هذا المريض أنّه سبق له أن رأى مما أثار عدم رضا الحضور: مزاج البعض أثار عدم تحفظ البعض الآخر، فصرح أحدهم أنَّ أوَّلَ تجربة مماثلة كانت أمام السيدة Dupré، حينها خرج أبي قائلاً: أعتقد أنَّ الطبيب كان من الأفضل له دعوة تلك العينين الجميلتين (يقصد السيدة Dupré) بدلاً من دعوة أناس قادرين على تقييم الوضع.

لم يعجب هذا الحديث السيدة Dupré فقد وجدته مهيناً لشخصها ولمعارفها في علم التشريح؛ إذ إنَّها تدعي معرفة واسعة في العلوم، كانت مقربة من السيد Argenson وزير الحرب في تلك الفترة، فحرضته ضد أبي وبعد عدة أيام في الرابع والعشرين من شهر تموز عام 1749جاء مفوض من الشرطة يدعى Rochebrune مع ثلاثة رجال في التاسعة صباحاً، وبعد زيارة دقيقة لمكتبه ولأوراقه أخرج المفوض من جيبه أمراً بتوقيف أبي وأخذه إلى سجن Vincennes، ودون أن يسبب ذلك الأمر أيّ إرباك لدى أبي رجاه أن يمنحه بعض الوقت

لإبلاغ زوجته، قال لها إنّ لديه بعض الأعمال المتعلقة بدائرة المعارف، ولن يعود قطعاً عند الغداء ثم خرج، وبحركة لا إرادية اقتادت أمي إلى النافذة لترى أبي في عربة باسطاً ذراعه في محاولة ليأخذ مسودات من صبي يعمل في المطبعة، فتقدم أحد الرجال ودفع أبي وأمر الصبي بالابتعاد، صرخت أمي وأغمي عليها، وعندما استعادت وعيها قصدت السيد Berrier ملازم في الشرطة، والذي قال لها:

«بإمكانك أن توفري عليه الكثير من المتاعب، وأن تعجلي بإطلاق سراحه إن أرشدتنا إلى مكان وجود أعماله، ما هو العمل الذي يؤلفه الآن، أين هو كتاب «Le pigeon blanc» البجعة البيضاء؟» (هي قصة جميلة كان أبي يقرأ بعض مقاطعها على أصدقائه، والتي احتوت بعض الإسقاطات على الملك ووزرائه).

أجابته أمي بأنّها لم تر ولم تقرأ في حياتها شيئاً من مؤلفاته، وأنّها متفرغة تماماً لشؤون البيت ولا تعرف لا بجعة بيضاء

ولا سوداء، وهي واثقة بأنَّ أعمالـه تتوافق تماماً مع سلوكه، ثم أضافت:

«إنَّ زوجي يقدر ألف مرة شرفه على حياته، ولا بدَّ لأعماله أن تعكس تلك الفضائل».

وجد السيد Berrier أنَّ أمي شخص متحفظ، فلن يحصل منها على أيّة معلومات، فأمرها بالانصراف بعد أن وعدها برؤية أبي في أبكر وقت ممكن؛ إذ إنَّه سيبقى في سجنه دون أن يتمكن من رؤية أحد سوى السيد Berrier الذي استجوبه لمرات عديدة خلال ثمانية وعشرين يوماً، وفي نهاية الأمر نصح السيد Berrier أبي بأن يتوجه برسالة إلى السيد Argenson وسيتكفل بإيصالها إليه، وفي تلك الرسالة طلب أبي إخراجه من ذلك السجن حيث الموت لا الحياة.

بعد مرور 28 يوماً، قيل لأمي أن تحضر إلى Vincennes فجاءت يرافقها أصحاب المكتبات شركاء أبي، عند وصولها أخرج أبي من سجنه، واقتيد الى القصر

حيث تم إبلاغه بأن الملك بمغفرة واسعة منه قد سمح له أن يبقى بالقصر، وأن يتنزه في حديقته فترة سجنه، أما المسؤول عن القصر فلقد غمره بفضله محاولاً أن يجعل من إقامة أمي أكثر راحة وأقلّ عناء وبقي الاثنان ثلاثة أشهر، سمح لهما بعدها بالعودة لبيتهم.

أذكر أنَّ أبي استطاع أثناء فترة السجن أن يجد وسيلة تسليه غمه: وجد في جيبه قطعة سواك جعل منها ريشة، وانتزع من جانب نافذته لوحاً قام بصقله وتبلليه بالنبيذ، وحوَّل قدحه المكسور إلى محبرة فقدم عمله «جنة ميلتون الضائعة «Le Paradis perdu de Milton».

كان السجان يجلبُ له يومياً شمعتين، لكن باعتباره ينام وينهض مع غروب الشمس وشروقها فلم يستخدمها إلا قليلا حتى أنَّه أراد إرجاعها له فأجابه بأنَّها ستكون مفيدة له كثيراً في الشتاء القادم.

بعد خروجه من السجن واستقراره في القصر، كانت السيدة Puisieux تأتي لزيارته من حين لآخر، إلا أنَّه

علم بعلاقتها مع رجل فثارت غيرته، وحين جاءته في إحدى المرات، وكانت متبرجة جداً فسألها أبي: إلى أين أنت ذاهبة؟ فأجابت: إلى «شامبيني» لحضور حفل.

- سيرافقك صديقك؟

- لا، أقسم بذلك.

شعر بالريبة إزاء الأمر، فمرّ من فوق سور الحديقة ووصل إلى شامبيني، وهناك وجد السيدة Puisieux مع عشيقها الجديد، عاد ونام يومها في الحديقة، وفي صباح اليوم التالي أخبر مسؤول القصر عن مغامرته تلك التي سرعت في قطع علاقته مع تلك السيدة.

بعد فترة وجيزة، تم توقيف دائرة المعارف الخاصة بأبي، وأبلغ السيد Malesherbes أبي بأنّه سيعطي غداً أمراً بإزالة جميع أوراقه وكتبه من المكتبة.

«ما تبلغني إيّاه الآن يثير لديّ مشاعر حزن كبيرة: لن يكون أمامي متسع من الوقت لأقوم بنقل كل تلك

المخطوطات، وكيف أجد في مدة قصيرة لا تتجاوز الأربع والعشرين ساعة من يتكفل بنقلها وعند من سأضعها لتكون في أمان؟»

أجاب السيد Malesherbes: أرسلها إلى بيتي، فلن يبحث عنها أحد هناك.

في الواقع، أرسل أبي نص الكمية إلى هذا الشخص، وكل الوقت الذي قضاه في إنجاز مشروعه؛ أي ثلاثين عاماً، لم ينعم فيها قط بالراحة، كان في كل ليلة يقلق إن كان باستطاعته المتابعة في اليوم التالي.

أمَّا أصحاب المكتبات شركاؤه في العمل، فلقد خيبوا أمله: كان قد أصدر كتاباً من فترة بسيطة، وقام بمراجعة جميع المسودات؛ إذ كان يبحث عن شيء ما فوجد مقالاً مقتطعاً منه أجزاء ومحوراً بأجزاء أخرى منه، فتساءل: كيف لمثل خطأ كهذا أن يرتكب؟

فدفعه ذلك إلى تصفح الكتاب بالكامل ليجد عمله محرفاً ومشوهاً!

كان ذلك من فعل السيد Le Breton أحد شركائه؛ إذ قام بحذف كل ما بدا صعباً ليقبله عقله وفكره الضعيفان في محاولة منه ليخفف من أثر وجسارة تلك الأفكار الواردة في الكتاب.

توقع أبي أن يمرضه ذلك الأمر، استشاط أبي غضباً لدرجة أنَّه أراد التخلي عن العمل، لكن مع مرور الوقت والأعذار السخيفة التي قدمها LeBreton الذي كان يخشى المقصلة تمكنت من تهدئته ولكن لم تتمكن من مواساته، كان على ثقة بأنّ الناس تدرك مثله تماماً ما ينقص كل مقال من مقالات الكتاب، وثقته باستحالة إصلاح الضرر الناتج عكرت مزاجه لعشرين سنة قادمة، ومع ذلك لقد طلب أن نخرج له من المكتبة خاصته نسخة عن العمل حيث كل شيء فيها أعيد ترتيبه؛ هذه النسخة باللغة الروسيَّة.

ما أحزن أبي هو تخلي السيد دالامبير d'Alembert عن العمل معه، من يمكنه أن يصدق أن يكون المال سبب

انسحابه؟

قرأت في رسائل أبي الخاصة جداً عن كل التفاصيل التي ارتبطت بتلك المرحلة؛ إذ طالب السيد d'Alembert بزيادة معتبرة في راتبه، فوافق أصحاب المكاتب الذين يعملون مع أبي، وبعد عدة أشهر طالب بالمزيد، فوافقوا على مضض، ثم بعد أشهر أخرى طالب بالمزيد أيضاً، لم يستطع أبي أن يلزمهم بالموافقة مع كلّ المحاولات الفاشلة من ترج وصل حد التوسل لصديقه وحد القسوة على شركائه.

لم يقلل هذا الأمر من تقدير أبي لشخص السيد d' Alembert ولا من إنصافه لقدر مواهبه النادرة، وفي كل لقاء يجمعهم كانوا يتعاملون فيما بينهم كما لو أنّهم لم يفترقوا أبداً، وإن طال غيابهم -في بعض الأحيان- سنة أو سنتين.

في هذه الفترة كان أبي يعمل على كتاب جاهز للنشر بعنوان «نزهة المرتاب» La Promenade

du sceptique ، عند زيارة أحد الأشخاص المدعو Hémery وجد المخطوطة فوضعها في جيبه قائلا لنفسه: «هذا ما أبحث عنه، إنَّه لعمل جيد!».

حاول أبي منذ ذلك الوقت استعادة الكتاب إلا أنَّ جهوده تلك لم تثمر، وما عرفه عن الكتاب أنَّه انتقل من مكتبة السيد Berrier إلى مكتبة السيد Lamoignon بعدها عند السيد Beaujon، ربَّما هو هناك أو ضاع[1].

ثم قدم أبي للفرنسيين عمله بعنوان «رب الأسرة» «Le Père de la famille» عام 1758 لم تلق هذه القطعة المسرحيَّة رواجاً، ولم تعرض أكثر من تسع مرات، علماً أنَّها نالت استحسان مؤلفها، قام بدور الأب الممثل Préville وبدور صوفي الممثلة Gaussin.

هذان الممثلان كان لهما دور في إضعاف العمل الذي قد يكون بعيداً عن نمط تمثيلهم؛ ذلك العمل المثير للاهتمام من الجانب العاطفيّ والحسيّ أكثر منه من جانب تعاقب

(1) وجد العمل ونشر في عام 1830.

الأحداث والوقائع، هذا الفشل ضعف لدى أبي رغبته في تأليف النوع الدراميّ باستثناء عمله « الابن الطبيعيّ» Le Fils naturel حيث لاقى نجاحاً عند إعادة إحيائه عام 1769.

ومنذ ذلك الوقت لم أعرف أحداثاً قاسية أشد من تلك الأحداث التي سببت لأبي ألماً شديداً بفقده أطفاله الثلاثة الواحد تلو الآخر، فالأول مات وهو رضيع، والثاني أودت بحياته حمى بعمر خمس السنوات، أما الثالث فقد سقط من بين ذراعي المرأة التي كانت تحمله على درجات الكنيسة يوم تعميده.

نذرت أمي أن تلبس الأبيض وأن تنذر مولودها الأول الذي سيأتي للحياة للسيدة العذراء وللقديس François، ولا يمكن لأحد أن ينزع من رأس أمي أنّني أدين بوجودي في هذه الحياة لهذا النذر.

كنت بعمر أربع إلى خمس سنوات حين رغب جدي برؤية كنته وحفيدته، وكان عمره وصحته لا يعدان

بالحياة الطويلة، اقتادتني أمي إلى الشامباين حيث مكثنا ثلاثة أشهر.

أثناء ذلك ارتبط أبي بعلاقة مع السيدة Voland التي أحبّ ابنتها حباً دام حتى غيب الموت كليهما، كان يقضي وقته إمّا في عمله وإمّا مع هذه العائلة .

أمّا عن رغباته في الحياة فكانت بسيطة: دون بذخ، ودون حسابات، ودون مطامع، كان مقتنعاً تماماً بأنَّ أعظم ما يمكن صنعه للإنسان هو توسيع معارفه ومداركه حتى إنَّ معارفه كان يعدها ملكاً للجميع، ومع ذلك فإنَّ الجزء الأكبر من حياته قضاها في خدمة كلّ من احتاج لماله أو لمواهبه.

خلال خمس وعشرين سنة، كان مكتب أبي أشبه بمحل يتعاقب عليه الزبائن، إلا أنَّ هذا التعاطي السهل مع الناس جلب له الكثير من المتاعب: كان الأصدقاء الذين يعرفون تماما قيمة هذا الوقت المسروق من صاحبه نادرين، فبابه المفتوح أمام الجميع جلب له أشخاصاً يثيرون الاشمئزاز

فيسرقون وقته وراحته.

ومن بين هؤلاء كان السيد غلانه de Glénat حيث كان يتردد على مكتب أبي ليمكث ساعتين إلى ثلاث ساعات، وكان دائماً ما يطلب النصيحة فيما يتعلق بأمور السياسة وكانت تستهويه مسائل الميتافيزيقا أيضاً، وأحد أصدقاء أبي النزيهين أعلمه أنَّ هذا المسمى de Glénat هو مخبر لدى الشرطة.

ذات صباح، جاء شاب معه مخطوطة، رجا أبي أن يقرأها ويضع ملاحظاته على الهامش؛ كانت المخطوطة عبارة عن هجاء بحق أبي وبحق أعماله، وحين عاد الشاب قال له أبي: إنِّي لا أعرفك، هل بإمكانك أن تخبرني عن الدافع الذي جعلك تكتب هجاء بحقي ولأول مرة في حياتي؟ إنِّي ألقي هذا النوع من الأعمال في حاوية المهملات.

أجابه الشاب: إنِّي لا أملك قرشاً، وتوقعت أن تعطيني بعض المال حتى لا أطبعها.

قال أبي: لن تكون الأول الذي يدفع له لشراء صمته،

وبإمكانك أن تجني فائدة أكبر من ذلك العمل! أنصحك بالذهاب الى أخ دوق Orléans الذي سحب الى منطقة sainte geneviéve إن ذلك الشخص يكرهني، قدم له عملك هذا وسيجزيك العطاء.

قال الشاب: ولكنّي لا أعرف هذا الأمير، بالإضافة إلى أنّني لا أجيد كتابة الإهداء.

قال أبي: اجلس لأكتبها لك.

كتب أبي الإهداء وذهب الشاب للأمير الذي قدم له 25 قطعة ذهبيَّة، عاد الشاب شاكراً أبي، فنصحه أبي أن يمتهن عملاً أقلّ إذلالاً!

جاءه -لا أدري من أين- شاب يدعى ريفيير Rivière: شاب وسيم، وفصيح، وفقير، وبائس يلبس قناع الحساسيَّة، والقليل ممَّا ذكر كاف ليشغل أبي، فساعده في إنجاز بعض المؤلفات، وكان في بعض الأحيان يقدم له المال، رغبة أبي في جعل مصير هذا الشاب أكثر استقراراً جعلته يطرح عليه بعض الأسئلة عن عائلته عله يجني

فائدة ما.

-قال الشاب: لدي أخ كاهن، غنيّ جداً باستطاعته مساعدتي، إلا أنّه يكرهني، حين كنت صغيراً، مارست عليه بعض الحيل، وحين أصبحت ناضجاً تسببت بعدم جعله مطراناً...

-وكيف ذلك؟

-إنَّ الأمر بسيط جداً، كان يؤدي موعظة يوم الصوم الكبير أمام الملك، وكانت خطبته فصيحة وبليغة حازت على رضا الجمهور، وكاد أن يسمى مطراناً لدى أول مطرانيَّة شاغرة، فقمت بالاستهزاء بمواهبه، وأخبرت الجميع أنَّ الخطبة من تأليفي.

-إنَّ هذا السلوك سخيف جداً، رغم ذلك قد يكون أخوك رجلاً صالحاً، سأحاول الإصلاح بينكما، إن لم تفسد مهمتي ببعض من طيشك، لعلّنا نحصل على مبتغانا.

توجه أبي إلى الأب، وصل أبي معرفاً عن نفسه واستقبله

الأب باحترام، لكن لم يكد أبي يتلفظ الكلمات الأولى عن الموضوع الذي كان سبباً في مجيئه حتى اهتاج الأب واتقدت عيناه غضباً.

-رجل حكيم مثلك لا يثير موضوعاً هو على علم به، هل تعرف أخي؟

-إنّي أصدقه، فهو لم يخف عني أياً من الأسباب التي دفعتك للتشكي منه.

-من المستحيل أن يتجرأ ويحدثكم بما سأرويه عليكم.

بدأ يقص عليه فصولاً من الدناءة والشرور بعضها أشد من بعض، وكان أبي مذهولاً من وابل الشناعة والخزي الذي يدور حوله هذا السرد، كان ينظر بطرف عينه إلى المكان الذي وضع فيه عصاه وقبعته مترقباً انسحاباً عاجلاً.

لحسن الحظ أنَّ الأب تحدَّث طويلاً، فاستعاد أبي هدوءه منتظراً بصبر نهاية هذا السرد الطويل جدا بقدر ما هو

عنيف، توقف الأب أخيراً، فقال أبي:

-أنا على علم بكلّ هذا، ولكنَّك لم تخبرني بكلّ شيء.

-يا رب السماء! وماذا تريد أن تعرف أكثر؟

-إنَّك لم تخبرني بأنَّه ذات مساء، حين عودتك من صلاة السحر وجدته أمام باب بيتك ومعه خنجر يريد أن يطعنك به!

-إن لم أخبرك بذلك، فلأنَّ ذلك غير صحيح!

عندها استقام أبي واقترب من الأب قائلا: حتى لو أصبح ذلك صحيحاً، فعليك أن تقدم لأخيك ما يكفيه لقوته.

كانت تلك العبارة كافية للتأثير على تلك الروح الراسخة والصلبة ليصبح بعدها كل شيء يسيراً.

اقتنع الأب بكلام أبي ووعده أن يعطي أخاه ستمائة ليرة كمعاش له.

عاد أبي منتصراً بعد تلك المفاوضات، فقال للسيد ريفيير (Rivière):

-لقد خدعتني، أنت لست بالرحل النزيه، لقد ارتكبت مئات الأعمال الدنيئة، لكن ذلك لم يثنيني عن إنجاح الأمر، فلقد وعد أخوك بإعطائك ما يكفيك، عليك أن تكف عن ذلك الطبع المشين الذي يجلب البؤس لك والعذاب لأسرتك والعار أمام أصدقائك.

غمرت ريفيير (Rivière) سعادة كبيرة فشكر أبي على مساعدته وعلى نصائحه وتبع ذلك حديثاً لربع ساعة ثم استأذن بالانصراف، توقف قبل رحيله قائلا لأبي:

-هل تعرف الحكاية الطبيعيَّة (l'Histoire naturelle)؟

-قليلاً، يمكنني أن أميز بين الصبار والخس، وبين البجعة والطائر الطنان.

-هل تعرف حكاية Formica-leo؟

- لا.

-هي حشرة صغيرة مجتهدة تحفر في الأرض حفرة على شكل قمع، ثم تغطيها بالرمل الناعم، بعد ذلك تقوم بجذب الحشرات إليها فتأخذها وتأكلها، ثم تابع قائلاً:

-أتمنى لك يوماً طيباً سيد ديدرو.

بعد فترة وجيزة، عاصفة مطريَّة أجبرت أبي على الدخول إلى إحدى المقاهي ليجد فيها السيد ريفيير، اقترب الأخير من أبي، وسأله عن أخباره، فقال أبي:

-ابتعد أيّها الرجل الفاسد، وإن كان لديك أب غني، فأنا لا أعتقد أنَّه بأمان معك في غرفة واحدة.

-للأسف! ليس لدي أب غني، حسناً أيها الفيلسوف لا تأخذ كل شيء على محمل الجد!

* * *

كان الدوق دو لافريير (de la Vrillière) على علاقة بامرأة، إلا أنَّه هجرها ونساها. اضطرت هذه السيدة لبيع

المجوهرات والماس الذي قدمه لها الدوق، ثم أثاث منزلها الذي بدا لها غير مفيد البتة، وانتهت ببيع ملابسها حتى تستطيع العيش، عاشت بعد ذلك في فقر مدقع، فقررت أن تقصد الدوق، لكن ذلك كان دون جدوى، اعتقدت إن استخدمت أسلوباً رقيقاً مؤثراً قد تحصل على مساعدة ما، فقصدت أبي الذي وافق على إنشاء كل الرسائل التي تريد، أستعرض إحداها:

«طالما استطعت العيش -سيدي- بعطايا حنانك، فإنِّي لن ألتمس مساعدة تنبع من شفقتك، ولكن من كل ذلك الشغف الذي كنت تكنه لي لم يتبق لي سوى صورتك، إن لم تضع حداً للمأساة التي أعيش بها، فأنا مضطرة لبيع تلك اللوحة».

هذه الطريقة في الكتابة بدت جديدة بالنسبة للدوق، فأرسل فارساً ليعطيها خمسين Louis، رجاها الفارس أن تخبره باسم كاتب الرسائل، فأعطته اسم أبي، ولسنوات عديدة قادمة كانت كل رسالة تجلب لها مساعدة معتبرة،

وفي نهاية المطاف أصبحت هذه السيدة عاجزة وضعيفة لدرجة أنَّها لم تعد تستطيع أن تقصد بيت أبي الذي اعتقد أنَّها ماتت إلى أن وصله منها شرح مرعب لتفاصيل معاناتها وبؤسها الشديدين، وكلّ ما كانت ترغب به هو سرير في مشفى انكيرابل les incurables، فكتب أبي للدوق هذه الرسالة، وهذا مقتطف منها:

«تلك البائسة التي طالما أحببتموها، هي على وشك أن تلفظ أنفاسها الأخيرة في كوخ صغير، إنِّي لا أطلب منكم -سيدي- إطالة حياتها التي جعلتها قاسية، ما أطلبه هو سرير في مشفى les Incurables حيث أستطيع أن أموت، إن لم تمنحني هذا الانسحاب، فقد يقتادوني إلى المشفى، وهناك قد أموت حاملة معي كل رسائلك التي ستعاد إليك من هذا المكان»، وبهذه الرسالة حصلت السيدة على سرير هناك حيث ماتت.

على هذه الحال كان أبي يقضي أوقاته، فكان يكتب رسائل شعريَّة تذكاريَّة للموسيقيين (لدي منها اثنتين أو

ثلاث) وكان يضع برنامجاً مسرحيّاً، ويصوغ مقدمات تمهيديَّة لبعض الأعمال أو خطابات، وذلك تبعاً لحاجة كلّ من يقصده، ذات يوم جاءه رجل راجياً إياه أن يكتب له إعلاناً للترويج عن منتج لإطالة الشعر.

كان يترك دخله لأمي، ولا يطلب إلا القليل من ذلك الراتب، فلقد كان مبذراً، كان يحبّ اللعب، ويخسر دائماً، وكان يحب التنقل بالعربات التي ينساها أمام الباب غالباً، فيضطر لدفع أجرة يوم كامل.

أمَّا النساء اللواتي ارتبط معهن بعلاقة، فكن يتسببن بمصاريف إضافيَّة، ولم يرغب قط إخبار أمي عنها.

لم يرفض تأليف أي كتاب أو عمل، فكان يتمتع بقدرة عالية على التخيل والابتكار لمصورات مطبوعة أو لأحجار محفورة أو لمصغرات، وكان ينجز تلك الأعمال في اليوم التالي ليوم طلبها.

كان يعمل لقضاة، ولكل من يستطيع أن يدفع ثمن عمله دون انزعاج، وقدم مرافعات لمحامين وخطابات

لملوك، وكتب احتجاجيَّة للنواب، وكان يقول بأنَّه كان يدفع له ثلاثة أضعاف ما تستحق، وكان ذلك المال يلبي رغبته في العطاء، وبعضاً من العيش الكريم.

كان ذلك في عام 1763، حين قرر أبي بيع المكتبة حتى يؤمن لي تكاليف زواجي ويطمئن على مصيري، قام حينها السيد غريم Grimm بتعريف أبي على الأمير غاليتزن Galitzin سفير روسيا آنذاك، والذي رتب لعملية البيع، اشترت الإمبراطورة المكتبة بمبلغ خمسة عشر ألف فرنك، وقدمت له معاشاً قدره ألف فرنك ليكون أمين المكتبة، إلا أنَّ هذا المعاش لم يدفع لأبي خلال عامين، فسأله الأمير غاليتزن إن كان قد استلم هذا المعاش، فأجابه أبي بأنّه لا يفكر بالأمر، وبأنَّه سعيد جداً لأنَّ الإمبراطورة تريد شراء المكتبة، وستترك له جميع أدواته، وتكفل الأمير بأن جعل المعاش يسدد لأبي.

في الواقع، بعد فترة من الزمن تلقى أبي مبلغاً قدره خمسين ألف فرنك بما يعادل تسديد المعاش لخمسين سنة.

في هذا الوقت خطط أبي للذهاب إلى روسيا بغية شكر جلالة الإمبراطوراة شخصياً، بانتظار ذلك ناقش ظروف الرحلة مع فلاكونه falconet الذي كان معجباً بمواهبه، ولكنَّه لم يستطع أن يفهم كيف يمكن لإنسان أن يجمع العبقريَّة مع روح قاسية وباردة، باعتبار أنَّ فلاكونه كان مقتنعاً بأنَّ أبي لن يترك أبداً بيته، وبأنَّ مسألة شكر الإمبراطورة لن تحمله على الذهاب إلى روسيا، فإنَّه لم يتوقف عن الإلحاح بدعوة أبي للمجيء مدعياً صداقته وشوقه للقياه، وحين اتخذ أبي القرار بالذهاب، وبأن السيد ناريسكين Nariskin وافق على اصطحابه، تحول الشوق والود إلى برودة واضطراب في العلاقة.

غادر أبي في العاشر من أيار/ مايو عام 1773 حيث بقي في بيت الأمير غاليتزين إلى أن اصطحبه ناريسكين إلى روسيا، وصل أبي إلى عند فلاكونه بآلام في أحشائه سببتها مياه المناخ الذي لم يعتد عليه بعد، واستقبله فلاكونه ببرود قائلاً له إنَّه يتأسف لعدم قدرته على استضافته في بيته، فإنَّ الغرفة المخصصة له يشغلها ابنه الذي جاء على حين غرة،

فما كان من أبي إلا أن كتب رسالة إلى ناريسكين ليبحث له عن مأوى، فسارع ناريكسين لاستقباله في بيته حتى لحظة مغادرته البلاد.

تحدث أبي كثيراً عن طيبة هذه العائلة، وعن الاهتمام والعناية الفائقين وعن التقدير الذي حظي أبي به، كلّ ذلك جعل من اسم هذه العائلة بنظري موضع احترام وامتنان كبيرين، أمَّا الرسالة التي كتبها أبي لأمي يصف فيها استقبال فلاكونه له، فقد مزقت، غالبا ما تقابلوا -أقصد أبي وفلاكونه- أثناء إقامة أبي في Pétersbourg، ولكن روح الفيلسوف كانت مجروحة للأبد، ورغبة فلاكونه بأن يكون رجلاً متميزاً في الأدب خلقت بينه وبين أبي بعض النقاشات الناعمة كانت كافية للفصل بين هذين الرجلين، وحالة الحزن الذي سببها فلاكونه عوضت عنها حالة من السعادة الكبيرة بوجود السيد غرييم Grimm في روسيا.

مكث أبي في روسيا بضعة شهور، وكونه لم يكتب شيئاً

عن رحلته، فكلّ ما استطعت أن أجمعه من تفاصيل كان من خلال رسائله أو نقاشاته التي كانت تعكس حماسه وإعجابه بهذه الإمبرطوريَّة، كان يحظى برؤية وسماع الأميرة كل يوم، ولكن أبي لم يخلق ليعيش في بلاط ملكي، ولا بدَّ أنَّه ارتكب بعض الأعمال التي تسبب الإحراج، بالإضافة إلى أنَّ البرد ومياه نيفا la Néva قد أضرا بشكل هائل بصحته، فأنا على ثقة بأنَّ هذه الرحلة قد قصرت بعمر أبي.

لم يفكر أبي قط بأن ما يجب ارتداؤه في قصر يختلف عمَّا يمكن ارتداءه في كوخ، فقدمت له الأميرة كهدية ثياباً من الفرو، وسألته عمَّا يمكن أن يجعله سعيداً، فطلب أبي رجلاً ليصطحبه في طريق العودة، فهو يدرك تماماً عجزه عن تدبير أموره حين يتعلق الأمر بالسفر، فقدمت الإمبراطورة لأبي حجراً كريماً على شكل خاتم عليه صورته؛ تلك الهدية عدّها أثمن من كنوز العالم بأسره، وتكفلت بنفقات السفر وأعطته عربة لتقله، ورجلاً لطيفاً ليرافقه يدعى بالا Bala؛ إنَّها لمهمة شاقة أن تصطحب

رجلاً لا يريد التوقف لا من أجل النوم ولا من أجل الأكل.

وصل بسيارته إلى بيت في Pétersbourg حيث عليه الإقامة، ثم وصل إلى عند الأمير غاليتزين ليبقى عدة شهور معه، وصل أخيراً إلى باريس في الأيام الأولى من شهر أكتوبر/ تشرين الأول 1774، كنَّا -أمي و أنا- بانتظاره، ووجدته نحيلاً، وقد تبدلت هيئته إلا أنَّه دائم البشاشة والطيبة.

– قال أبي: زوجتي العزيزة، لا تملكين سبباً لتأنيبي، ما عليك إلا أن تحصي ملابسي، فلم أفقد منديلاً ممَّا أخذت.

أثناء إقامته في روسيا لم ينس تلبية طلبات أصدقائه، أحدهم طلب عينات من رخام سيبيريا، فجلب له مجموعة مرتبة ضمن خانات بعناية فائقة، وآخر طلب عينات من المعادن، فحصل على صندوق كامل.

بعد هذه الرحلة، فقد أبي السيطرة على رجليه، من الوقت الطويل الذي قضاه في السيارة، أو ربما نوع

الجراثيم، سبب له المرض الذي أودى بحياته؛ جراثيم سببت له خناق صدري عندما يمشي لفترة طويلة.

في طريق عودته، شغل نفسه بدحض كتاب helvétius[1]، اهتم ببعض المؤلفات التي لم يكن قد طبعها بعد، ثم قام بتأليف روايتين: جاك القدري Jacques le fataliste ورواية المتدينة la religieuse، وبعض الحكايات، لكن ما أتى ودمر ما تبقى من قواه، كان عمله المسمى «sur les règnes de Claude et de Néron» عن حكم كلود ونيرون، ومهمة تكفل بإنجازها لأحد الأصدقاء، كان مصمماً أن يجد نموذجاً لعمله كأعمال سينيكا Sénèque[2] شخصيَّة عادلة، ونقية جديرة بمبادئه؛ إذ لم يترك ديدرو مؤلفاً لسينيكا ولم يقرأه.

(1) فيلسوف فرنسّي ولد عام 1715، له نظريَّة تقول إن الناس كلهم يولدون بقدرات متساوية، ولكن ظروف التربية والتعليم تجعلهم متفاوتين في القدرات.

(2) فيلسوف وكاتب مسرحيّ وخطيب رومانّي.

كان يرغب بأن يكونَ العمل الذي ينجزه لصديقه نموذجاً للبلاغة والإتقان، فكان يعمل أحياناً لمدة أربع عشرة ساعة متواصلة، ولم يهمل أياً من قراءاته التي من شأنها أن تخدم القضايا التي يعالجها في مؤلفاته، عندها بدأ يشتكي من صحته، قد أهلك رأسه بالأفكار فلم يعد يملك منها المزيد، و أصبح أي عمل مهما كان بسيطاً يتعبه، وقلَّ خروجه وقلَّ طعامه، وخلال ثلاث إلى أربع سنوات شعر بحالة من الانهدام في جسمه، لا يمكن للغريب أن يلحظه، لكونه دائم الرقة والحماس في نقاشاته.

في السابع عشر من فبراير/ شباط 1784، تعرض لهجمة نزيف حادة فقال:

«إنَّها النهاية، لا بدَّ لنا من الانفصال الواحد عن الآخر، لن يكون ذلك خلال يومين، ولكن ربما خلال أسبوعين أو ربما عام ...»

كنت معتادة على تصديقه، فلا ينتابني الشك لحظة واحدة بهذه الحقيقة، في كل مرة جئت بها لزيارته كنت

أرتجف، بسبب ما يجول برأسي بأنني لن أراه أبدا بعد مغادرتي.

بالعودة للحديث عن وضعه الصحي، فإنَّ طبيعة النزف والنبض يعلنان عن الإصابة بالتهاب بالرئة (نزف ثلاث مرات في ذلك اليوم)، وفي اليوم الثامن من مرضه كان عندما يتحدث يصوغ الجملة بمعنى معاكس، ليعيدها من جديد ويخطئ مرة أخرى، نهض حينها قائلاً لي:

إنَّها دلالات سكتة دماغيَّة، وأشار إلى يده الباردة وفمه الذي استدار قليلاً، وعاد إلى سريره، وعانق أمي وودعها، ثم عانقني وودعني مشيراً إلى المكان الذي يحتفظ فيه ببعض الكتب التي لا تعود ملكيتها له، وتوقف بعدها عن الكلام، كانت الحادية عشرة مساءً عندما اجتمع الأطباء والجراحون، وقد أعلنوا قرب الأجل.

في كثير من الحالات المشابهة كان المرضى يقضون نحبهم وهم بهذه الحالة، وبإشارة من يده، طلب منَّا أن نتركه بسلام، فلقد كان يسمعنا تماماً، وقام الأطباء بتطبيق

مرهم جلديّ على ظهره ورجليه vésicatoire[1]، واستطاعوا إقناعه بشرب القليل من الحليب.

في الواحدة بعد منتصف الليل تناول ثماني حبات من ذلك العقار المسبب للتقيؤ كما هي العادة في تناول هذا الدواء، وكان هذا الدواء يسبب له الكثير من العذاب، فتحدث عن ذلك قائلاً:

«أنتم تطيلون حياتي بأشيائكم السيئة».

أمضى ثلاثة أيام بلياليها، وهو في حالة من الهذيان، فيها كان يتحدث عن المرثيَّات الإغريقيَّة واللاتينيَّة ويترجمها لي، وتحدَّث عن التراجيديا وعن الأبيات الشعريَّة الجميلة لـ Horace et Virgile.

في اليوم الرابع، تلاشت تلك الحالة من الهذيان مع احتفاظه بذكرى تلك الأحداث، بدأت صحته تتحسن، وأخذ يتحدث إلى أصدقائه بفرح وسعادة معتادين،

---

(1) مادة دوائية تطبق على الجلد يستخدمها الأطباء في حالات الغيبوبة.

استعاد شهيته، وأخذ يأكل أكثر وينام جيداً، كان يرغب أن ينتهي من تطبيق تلك المراهم من على رجليه حتى يتمكن من الخروج والتنزه.

لقد استطاع فعلاً الخروج، وخلال عدة أشهر لم يشعر فيها بأية آلام حادة، ولكنَّه كان متعباً وضعيفاً حيث لاحظ تورماً في رجليه كان قد تنبأ به من قبل، فاستشار الطبيب مالويه Maloet حيث أبدى هذا الطبيب الكثير من الاهتمام والعناية ولكنَّه كان مقتنعاً باستحالة شفائه.

قام الطبيب بإجراء كي على الذراع اليمنى وأوصى بصنع عصير من الأعشاب إلا أنَّ التورم اجتاح فخذيه فتذكر أبي الطبيب باشيه Bacher الذائع الصيت بمعارفه الواسعة حول علاج الاستسقاء، كان بإمكان هذا الطبيب أن يجنبه الإصابة بهذه الحالة لو تم استدعاؤه باكراً.

طبق ذلك العقار على الفخذين vésicatoire فسحبت كمية من الماء، جعلت أبي يرتاح قليلاً، ومع المتابعة في العلاج قُضي على التورم تماماً، لكن ما إن تم

إيقافه حتى عاد التورم من جديد.

استطاع الطبيب أن يطيل من عمر أبي، ويخفف من معاناته لشهور، وجعل أيامه الأخيرة أكثر تحملاً بما أبداه تجاه أبي من ود في الصداقة وطراوة في الحديث، وعلم الخوري بمرضه فجاء لزيارته.

استقبله أبي بحرارة، ومدحه لدعمه البائسين محدثاً إياه عن أعماله الخيرة التي قام بها وعن تلك التي سيقوم بها في الأيام القادمة، كان يأتي لزيارة أبي مرتين أو ثلاث في الأسبوع، وأثناء ذلك لم يناقشوا مواضيع خاصة؛ أي المواضيع المتعلقة بالدين، ولم يرغب أبي بنقاش هذا النوع من المواضيع، ولكنَّه ما كان ليرفض لو طلب منه ذلك.

ذات يوم كانوا قد توافقوا بوجهات النظر عن قضايا تتعلق بالأخلاق والأعمال الصالحة، فطلب الخوري من أبي أن يقوم بطباعة هذه الحكم وأن يتخلى عن بعض مؤلفاته، وبرأيه أن ذلك سيكون له أثر عظيم في العالم.

«لكن سيدي الخوري، إنَّ ذلك كأنِّي أكذب بصفاقة!»

كانت أمي لتدفع حياتها ثمناً ليؤمن أبي بذلك، لكنَّها كانت تفضل الموت على أن تلزمه القيام بعمل هو أشبه بالتدنيس لمعتقداته، مقتنعة بأنَّ أبي لن يغير رأيه، ورغبة منها بأن توفر عليه تلك العذابات مع الخوري، فلم تعد تتركه ولا لحظة واحدة معه.

كان أبي يرغب بالإقامة في الريف، فأقام عند السيد بيل Belle صديقه منذ أربعين عاماً، والرجال الذين يرضون أن يكونوا شاهدين على حدث مؤلم بقدر ما هو قاس قليلون، كذلك الحدث الذي تشهد من خلاله رحيل من تحب وتجل، وما كان ليقدم لأبيه ما قدمه لأبي من رعاية واهتمام.

سكن أبي منذ ثلاثين عاماً في الطابق الرابع، وكانت مكتبته في الطابق الخامس، وكان طبيبه قد نبهه مراراً أنَّه سينهي حياته إن استمر في صعود كل تلك الطوابق.

التمس السيد غرييم Grimm من الإمبراطورة سكناً مناسباً لأبي، فمنحته شقة رائعة في شارع رشوليه

Richelier، ترك الريف وأقام في تلك الشقة، وعاش عدة أيام مستمتعاً، فقد وجد نفسه في قصر بالمقارنة مع سكنه السابق الأشبه بالكوخ.

لقد ضعف جسده يوماً بعد يوم، أمَّا عقله فلم يمسه السوء، كان مدركاً لحقيقة اقتراب الموت، لكنَّه لم يعد يتحدث عن ذلك رأفة منه بأناس غارقين بالعذاب، كان يحرص على أن يسليهم أو حتى أن يوهمهم بعكس تلك الحقيقة.

في الليلة التي سبقت وفاته، جلبنا له سريراً مريحاً، جهد العمال في وضعه في الغرفة، فقال: «أنتم تبذلون جهداً كبيراً لأمر لن يخدم أكثر من أربعة أيام».

في الليلة ذاتها، قدم أصدقاؤه لزيارته، تمحور الحديث عن الفلسفة والطرق المؤدية لهذا العلم فقال أبي: «الخطوة الأولى نحو الفلسفة هي التشكيك»، كانت تلك العبارة الأخيرة التي نطقها أبي أمامي، وكان الوقت قد تأخر، تركته راجية أن أراه مجدداً...

نهض في صباح يوم السبت، الثلاثون من شهر يوليو / تموز 1784، وبدأ يتحدث لطبيبه، تناول طعامه المؤلف من حساء، ولحم الخروف، وبعض الهندباء، تناول حبة مشمش وكانت أمي تحاول أن تمنعه من أكلها فاعترض قائلا: ماذا بإمكان هذا أن يسبب لي من أذى؟

تابع أبي طعامه متكئاً بمرفقه على الطاولة، عندما طرحت أمي سؤالاً ولم يجب، نظرت إليه ورفعت رأسه، إلا أنَّه كان قد غادرنا...

لم تسبب عمليَّة الدفن أية متاعب، ووري الثرى في كنيسة السيدة العذراء في منطقة القديس روش Saint-Roch.

باعتقاد أبي من الحكمة العودة إلى ذاكرة من رحلوا، فهذا من شأنه أن يكون مفيداً للأحياء، وقد طلب مني ذلك أكثر من مرة.

كان رأسه محفوظاً كشاب في مقتبل العمر، واحدة من رئتيه كانت مليئة بالماء، وثلثا حجم القلب كان أكبر من

المعتاد، وكانت المرارة مليئة بالحصى أصغرها كان بحجم حبة البندق، كلّ ما سبق من تفاصيل كانت موجودة في تقرير مرعب لم أستطع أن أقرأه.

بقيت أمي في السكن الجديد إلى أن استطاعت أن تجد غيره، وكان أيضاً مكرمة مقدمة من الإمبراطورة.

كان لدى جدي أربعة أولاد، واحدة من بينهم اختارت أن تصبح راهبة رغم معارضة الأهل، وكان يسمح لعائلتها بزيارتها مرة بالسنة، وكان أبي يزورها، وفي كلّ مرة كان يحدثها بكثير من الحرارة والود والحماس ليعود مقتنعاً بأنَّ مساً ما قد أصابها، ولقد ماتت مجنونة.

البنت الثانية؛ فتاة تملؤها الطيبة والحنان لوالدها الذي لم تفارقه يوماً، ولأخويها الاثنين اللذين أحبتهما أيضاً، متدينة بشدة لدرجة لم تعرف في حياتها ألماً أشد من تعلق أبي بكتاباته، وكانت قادرة على دفع حياتها ثمناً لإبادة أعماله.

أتمَّ عمي وأبي دراساته في اليسوعيَّة، وكان رجلاً مفعماً

بالحياة، وعنيفاً؛ إنَّه متعمق جداً في علوم اللاهوت، وكان يطبق بصرامة حكمة المسيح القائلة: «ما من خلاص خارج إطار الكنيسة»، بذلك لم يكن على علاقة طيبة بأبي لأنَّه لم يكن مسيحياً، ولا مع أمي لأنَّها زوجته، لم يرغب قط برؤيتي لأنَّني ابنته ولا رؤية أولادي لأنَّهم أحفاده، أمَّا زوجي الذي كان يستقبله بكل طيب، فقد أغلق بابه أمامه منذ أن أصبحت زوجته.

ارتبط بعلاقة وثيقة استمرَّت طيلة حياته مع أسقف مدينة لانغر Langres، السيد Montmorin كان عمي كاهن المدينة، وقد ترأس مجموعة مهمّة من الرهبان.

بقدر ما كان ظالماً، بقدر ما خشيت أن يسيء لأبي ويفتري عليه.

لقد امتلك جميع الفضائل التي ورثها عن جدي، فكان دخله للفقراء، في كل شتاء كان يفتتح محلاً لتقديم الخشب والقمح والشمع والزبدة لجميع المواطنين، كان يلبس الفقراء ويربي أطفال المساكين.

مسكن بسيط ، ثياب بالية، وفي بعض الأحيان وجبات عشاء لمجمع الرهبان، كانت تلك كل مصاريفه الخاصة، ما بقي فكان للمحتاجين، فلم يسمح لنفسه أن يعطي قرشاً واحداً لقريب أو لتائب.

منذ خمسة عشر عاماً، زار أبي مدينته، قام الأب غوشا Gauchat بلوم الأخوين، أجابه أبي بأنَّه قدَّم كلَّ محاولات التقرب من أخيه باعتباره الأكبر، وطلب منه الكاهن غوشا عدم الكتابة ضد الدين، فوعده أبي بذلك من خلال رسالة وجهها للكاهن، وطالب أبي بطباعة الرسالة، وأن يتخلى عن كل ما قام به من أعمال إلا أنَّ أبي رفض، وذهبت المفاوضات تلك إلى الجحيم، وبعد وفاة أبي طالب بأوراقه ليرميها في النار، ولكن كانت في روسيا مع مكتبته، طمأنه هذا الجواب، لكنَّه ظلَّ يخشى أن تعود هذه الأوراق وتحيا من جديد، وبقيت تلك الفكرة كفيلة بتعكير ما تبقى من عمره، ومبادرة الود الوحيدة التي قدمها لي أنَّه في القداس ولمدة عام كان يذكرني بعبارة: (من أجل روح الفتاة التي أفتقدها، وأفتقد أبيها).

في عام 1780، دارت نقاشات بين المحافظ وأربعة من أعضاء مجلسه ليطلبوا من أبي صورته الشخصية، وقد طالبوه بأن يمنح الرسام الوقت الكافي لإنجاز مهمته، فأجابهم أبي بما هو مناسب وأرسل لهم تمثالاً لشخصه من البرونز، نفذه السيد هودون Houdon، وُضِع التمثال في مبنى المحافظة ضمن خزانة تحتوي على الموسوعة وعلى جميع أعماله، وفي ذلك اليوم قدَّم المحافظ مأدبة عشاء، وضعوا التمثال على طاولة الطعام وشربوا نخب صحته، وتمت دعوة عمي لتلك المأدبة تقديراً له إلا أنَّه رفض، وبعد فترة وجيزة جاء بحجة رؤية شيء ما في المحافظة، ورأى أبي.

منذ أربعين عاماً، تقدم أبي بالانتساب للأكاديميَّة الفرنسيَّة رغم أنَّه لم يكون مهووساً بذلك، وقوبل طلبه بقبول الجميع ما عدا الملك، وكان تعليقه على ذلك: (إنَّ له الكثير من الأعداء)، وبعدها لم يفكر بالأمر بتاتاً.

قبل وفاته بفترة وجيزة، توفيت السيدة فولون

Voland والتي كان يكن لها كلّ الحبّ، فحزن عليها كثيراً، ولكن كان يواسي نفسه بيقينه الثابت بأنّه لن يعيش بعدها طويلاً.

لم تتغير مفاهيم أبي ولم تتبدل آراؤه، ولم يكن هذا الأمر يشغله، كان يؤكد دائماً على فكرة أنَّ علينا تقديم سند لمن لا يمتلك أيّ سند.

في الوقت الذي كان يحضر للدخول إلى اليسوعيَّة قام بتأدية فروضه الدينيَّة حيث استمرَّ هذا لأربعة أو خمسة شهور، فكان يصوم و ينام على القش، وكان يرتدي السيليس cilice[1] أيضاً.

لم أكن قد ولدت عندما تعرف أبي على جان جاك روسو، بدأت علاقتهما عندما كان مسجوناً في فنسين Vincennes، ولقد أثنى على ترك أبي لدائرة المعارف خاصته لمن يريد التكفل بإدارتها؛ لأنَّ هذا العمل من شأنه

(1) وهو قميص مصنوع من مادة معدنيَّة، يلبسها الإنسان كطقس دينيّ للتقرب من الله.

أن يعكر صفو حياته، أدركت أمي أنَّ روسو كان يرغب بهذا المشروع لنفسه، ممَّا حملها على النفور منه.

من الصعب أن أحكي عن السبب الحقيقي للخلاف الذي نشب بين أبي وروسو؛ هي حالة من التلاعب والعبثيَّة لم يسمع عنها الشيطان نفسه، كلّ ما استطعت أن أستشفه من تلك الحكاية هو أنَّ أبي أعطى روسو فكرة عن (خطابه حول الفنون)، وربَّما صححه، وأقرضه بعض المال لعدة مرات، وفي الوقت الذي مكث به في مونتمورنسي Montmorency كان أبي يداوم على زيارته مرة أو مرتين في الأسبوع، كان لدى روسو عشيقة تدعى لوفاسور Levasseur كانت هذه السيدة بنت عاقة لأمها التي كانت تتركها من دون طعام، فقدم أبي للأم معاشاً يقدر بخمسين قطعة نقديَّة دخلت ضمن قائمة نفقاته.

قام روسو بقراءة هيلويز Héloise استغرقت هذه القراء ثلاثة أيام بلياليها، وحين انتهت المهمة، طلب

أبي مشورة روسو في أحد الأعمال التي يعمل عليها، فقال له إنَّني متعب، وأرغب بالنوم، شعر أبي حينها بالخداع، فهو الذي يقدم النصائح لما فيه خير الجميع، إلا أنَّ هؤلاء المتلاعبين يستخدمونها بما يخدم مصلحتهم، وكانت النتيجة أن قام روسو بكتابة حاشية حول مقدمة العمل المسمى رسالة عن العروض Lettre sur les spectscles .

عدَّ أبي هذه الحاشية موجَّهة إليه، وكانت القطيعة بين هذين الصديقين للأبد، وما هو مؤكد أنَّ أبي قدَّم لروسو خدمات من كل نوع، قابلها روسو بالجحود والنكران، وإن كان لأحد أن يخمن ما وراء هذا الخلاف، فإنَّه السيد غرييم، فهو الوحيد القادر على شرح تلك القضيَّة.

نزهةُ المرتابِ
أو
الدروب

دربُ الأشواك

1- لن تلومني رغبتي الشديدة لتبديد الملايين من أموال الدولة لذهابي إلى البيرو، وجمع الذهب أو البحث عن حيوان السمور في لابوني، وهؤلاء الذين عهد إليهم الملك لويس من أجل التحقق من حسابات نيوتن العظيم ومن تحديد شكل الكرة الأرضيَّة كانوا قد ركبوا من دوني نهر تورنو Torno ولم أركب معهم نهر الأمازون.

عزيزي أرسطو لن أحدثك عن المخاطر التي عشتها في بلاد الشمال الجليديَّة ولا في الصحاري الحارقة في الجنوب ولا عن الميزات التي تقدمها علوم الجغرافيا والملاحة والفلك بعد ألفي أو ثلاثة آلاف عام، ولا عن أعاجيب

أدواتي في القياس ومهارة نظاراتي.

أسعى لغاية أكثر نبلاً ولفائدة قريبة، وهي تنوير العقل البشريّ، وصقله من خلال سرد لقصة بسيطة عن نزهة، هل يحتاج العاقل أن يجتاز البحار وأن يقطع المنحدرات الجامحة لمناطق وحشيَّة من أجل تعليم شعوب متمدنة؟

إنَّ كلَّ ما يحيط بنا هو موضع ملاحظة ورصد، فالأشياء التي تبدو أكثر ألفة يمكنها أن تشكل بالنسبة لنا عجائب؛ كلّ شيء مرهون بزاوية نظرك، فإن كانت نظرة شاردة فهي تخدعنا، وإن كانت نظرة حاذقة، فهي تقربنا من الحقيقة.

2- هل تعرف ذلك العالم السفلي؟ حدد عند أيّ خط طول تقع هذه المنطقة الصغيرة التي سأصفها لك، والتي درستها من خلال الفلسفة بعد أن أضعت وقتي في دراستها من خلال الجغرافية، وسأترك لك أن تسمي الشعوب المختلفة التي تسكنها بأسماء تتناسب مع أخلاقهم ومع صفاتهم التي سوف أقتفي ملامحها، قد

يدهشك العيش بينهم!

كيف لهذه الأمة الوحيدة أن تتألف من طبقات مختلفة، وقد تجهل لأي منها تنتمي! وقد تجهل الإرباك الذي ينتظرك أيضاً إن لم تعرف من تكون، ومن الخزي الذي ستشعر به إن وجدت نفسك بين جماعة الحمقى.

3- تلك الإمبراطوريَّة التي أحدثك عنها يترأسها حاكم جميع أتباعه تقريباً متفقون على اسمه، ولكن ليس على وجوده، لم يره أحد، وهؤلاء الذين يدعون أنهم تحاوروا معه، تحدثوا عن ذلك بطريقة غامضة ونسبوا إليه تناقضات غريبة جداً، في حين أنَّ مجموعة أخرى من الأمَّة استنفدت كلّ ما لديها لوضع أنظمة تشرح تلك الأحاجي أو أنَّهم مزقوا بعضهم بعضاً حتى تسود أفكارهم، وهناك آخرون اتخذوا موقف المشكك من كلّ ما سُرد، وهناك من كان غير مصدق بكل ما ذكر.

4- نفترض أنَّه (أي الحاكم) بمنتهى الحكمة، وأنَّه متنور تملؤه الرحمة بأتباعه، ولكن بما أنَّه قرر بأنَّ من غير

الممكن الوصول إليه أو على الأقلّ لبعض الوقت، وإنَّ الطريق التي اتبعها ليسنَّ القوانين، ويظهر إرادته هي طريق يشوبها الكثير من الريبة.

اكتشفنا في العديد من المرات أنَّ هؤلاء الذين يدعون الإلهام منه ليسوا إلا مدعي الرؤى أو منافقين، وإنَّنا نميل للتصديق بأنَّهم سيكونون ما كانوا عليه دائماً.

كتابان ضخمان مليئان بالأعاجيب والقرارات، أحيانا غريبة وأحيانا أخرى منطقيَّة تتضمن إرادته، كتب هذان الكتابان بطريقة غير متوازنة بحيث يبدو بأنَّه كان غافلاً عند اختيار أمناء سره، أو إنَّهم أساؤوا استخدام ثقته.

الكتاب الأوَّل يتضمن أنظمة فريدة تتبعها سلسلة طويلة من المعجزات للتأكيد على تلك القوانين، والكتاب الثاني يعيد ذكر تلك الميزات، ويصيغ أخرى جديدة، والتي تستند بدورها على أعاجيب، ومن هنا تنشأ قضيَّة بين المختارين.

يدعي المختارون من الخلق الجديد أنَّهم المفضلون

على الخلق القديم، ويحتقرونهم كأنَّهم عميان، في حين أنَّ هؤلاء يلعنوهم كأنَّهم دخلاء أو مغتصبون، سأشرح لاحقاً وبكثير من التعمق محتوى هذا النظام المزدوج، لنعد للأمير.

5- إنَّه يقيم في مكان منير ورائع حيث لدينا تصورات عديدة تختلف فيما بينها تبعاً لخيال من أنشأها، هناك سوف نذهب جميعاً. بلاط الملك هو موعد عام، نمشي إليه دون توقف، وهناك سنكافأ أو نعاقب تبعاً لسلوكنا الجيد أو السيئ الذي اتبعناه على الطريق.

6- نولد جنوداً، لكن لا شيء أكثر تفرداً من تلك الطريقة التي يتم فيها تجنيدنا: بينما نغط في نوم عميق لدرجة أن لا أحد منا يذكر إن كان قد سهر أو نام، يوضع على جانبينا شاهدان اثنان، ونسأل النائم إن كان يرغب بالانتساب ويجيب الشاهدان بدلاً عنه بالموافقة ويوقعان عنه وها هو قد أصبح جندياً.

7- في أيّ حكومة عسكريَّة ننشئ إشارات للتعرف

على من انتسب لمهنة السلاح ليصبحوا خاضعين للعقوبات المعلنة ضد الفارين، وذلك في حال تركوا من دون أوامر أو دون ضرورة، كما كان الحال عند الرومان حيث كانوا يطبعون علامات على المنتسبين الجدد ليلتحقوا بالخدمة تحت عقوبة الموت.

اتخذنا نفس الإجراء لدينا: أمر في الكتاب الأوَّل أن يتم وضع علامة لجميع الجنود على الجزء الذي يشكل رجولتهم، لكن إمَّا أنَّ حاكمنا غير رأيه وإمَّا أنَّ الجنس الذي يميل دائماً نحو نكران مزايانا يعتقد أنَّه قادر في الحرب مثلنا، ولكن هذا تمَّ تعديله في الكتاب الثاني.

بعض الفرق كانت ترتدي ما يشبه التنورة، وجيش الأمير كان يشكل فريقاً من الأبطال والمحاربات بزي موحد، وزير الحرب المكلف بتحديده أي الزي، اكتفى بعصابة وبثوب أو بلباس أبيض؛ إنَّه لباس جنود الكتيبة، ونعتقد بأنَّه مناسب أكثر لكلا الجنسين مقارنة بالزي الأوَّل؛ إنَّه مصدر على الأقل لمضاعفة عدد الفضائل،

ويمكنني أن أضيف هنا أنَّ هناك القليل من الرجال الذين يعرفون وضع العصابة بشكل جيد كما تفعل النساء.

8- تقتصر مهام الجندي على أن يضع عصابته وأن يحافظ على ثوبه أبيض، تزداد سماكة العصابة أو يمكن أن تضعف عند الاستخدام، وتصبح لدى البعض كأنَّها غطاء أكثر ثخانة، وعند البعض الآخر تصبح شاشاً خفيفاً قابلاً على الدوام أن يتمزق؛ ثوب من دون بقع وعصابتان سميكتان: هذا لا يمكن أن نشهده، يعدونك جباناً إن جعلت ثوبك يتسخ وإن تركت عصابتك تتمزق أو تسقط، فأنت هارب فار، وعن ثوبي يا صديقي، فلن أخبرك شيئاً، يمكن لمجرد الحديث عن مزاياه أن نجعل عليه بقعاً، وإن تحدثنا عنه بازدراء فهو شبهة لأن يكون متسخاً.

بالنسبة إلى عصابتي تخلصت منها منذ زمن طويل، لقد سقطت، إمَّا لعدم متانتها وإمَّا بمجهود مني.

9- نؤكدُ لكم بأنَّ أميرنا يمتلك كلَّ الأضواء، ومع

ذلك لا شيء أشدّ ظلمة من كتابنا، فكيف يكون من نتاجه، بقدر ما نقرأ في هذا الكتاب مقالات رصينة عن الثوب، بقدر ما تبدو المقالات عن العصابة مثيرة للضحك، من بينها على سبيل المثال: يقال عن هذا الحجاب إنَّه حين يكون مصنوعاً من قماش جيد بعيد كلّ البعد أن يحرمنا من الرؤية، وإنّنا نستطيع من خلاله أن نرى عدداً لا متناهياً من الأشياء العجيبة التي لا يمكن رؤيتها من خلال العينين فقط، وإنَّ من أهم خصائصه أنَّه يقوم مقام كأس متعدد الوجوه، ويحقق وجود نفس الشيء في عدة أماكن في الوقت نفسه: ما هذه الترهات التي يعززها البعض في حين أنَّ بعض الهاربين/ المنشقين يشككون بعقولهم الصغيرة؛ إنَّه لأمر معيب من طرف هؤلاء، فكيف ينسبون أفكارهم إلى مشرعنا، وكيف يزجون في كتابنا الجديد لا أعلم كم من السفاسف التي لا تقبل في الكتاب القديم، والمفاجأة أنَّهم أضافوا أنَّ المعرفة بأحلام اليقظة هذه هي ضرورة محتمة لنقبل في بلاط مولانا.

سوف تسألني دون أدنى شك عن حال هؤلاء الذين

جاؤوا قبل إصدار الكتاب الجديد، الحق يقال: أنا لا أعلم شيئاً عن ذلك؛ هؤلاء الذين يدعون أنَّهم يعملون في سريَّة عالية، يقولون وبنية تبرئة الأمير لأنَّه كشف حقيقة هذه الأشياء أمام ضباطه القدماء، ولكنَّهم لم يبرروا أنَّهم قاموا بتسريح الجنود الذين رحلوا ببساطة ولا بدَّ أنَّهم مندهشون لدى وصولهم إلى البلاط بأن عوملوا بكثير من الخزي والعار لجهلهم أشياء لم يتمكنوا أصلا من معرفتها.

10- يقيم الجيش في أقاليم مجهولة، لا شيء فيها يدعو للراحة: إنَّ الذين قاموا بتجنيدنا لا ينطقون بعبارات محددة فهم يكتفون بألفاظ شموليَّة، يخشون الالتحاق ويغادرون في أبعد وقت ممكن.

11- ثلاثة طرق تقود إليها: نرى واحداً إلى اليسار، يعد الأكثر أماناً وهو في الحقيقة أكثر الطرق مشقة: إنَّه دربٌ صغير وطويل وشديد الانحدار، تعوقه الحصى والأشواك التي تجعلنا نشعر بالرهبة، نسلكه على مضض بحيث نكون على وشك تركه في أيَّة لحظة.

12- نرى أمامنا طريق أخرى؛ درب رحب وسهلٌ تفرشه الأزهار، نشعر أنّنا مدعوون لسلوكه بشكل طبعي؛ إنَّه يختصر الطريق، لكن ذلك ليس بميزة بما أنَّ الطريق مريح، فلن يزعجنا إن كان طويلاً، إن كان المسافر متيقظاً وإن استطاع أن يتأمل الطريق بانتباه فسيجده غير منتظم ومتعرج وغير آمن، يبدو ميله سريعاً ويلحظ هوى[1] تحت الأزهار، فيخشى أن يتعثر محاولًا الابتعاد، لكن ومن دون طيب خاطر يعود ثانية لأنَّه ينسى نفسه؛ لا أحد لا ينسى نفسه بعض الأحيان.

13- إلى اليمين، هناك طريق صغيرة مظلمة، مغطاة بالرمال تحيط بها من الجانبين أشجار الكستناء، أكثر راحة من درب الأشواك وأقلّ متعة من درب الأزهار وأكثر أمناً من كليهما، لكن يصعب إتباعها حتى النهاية، فالرمال تصبح حينها متحركة عند بلوغ النهاية.

(1) جمع هاوية.

14- في درب الأشواك نجد مسوح وسيليس[1] وقواعد وأقنعة ودواوين من التخيلات الورعة وحلي صوفيَّة بالإضافة إلى وصفات تضمن بقاء الثوب من دون بقع أو من أجل إزالة البقع، ولا أعرف كم التعليمات لتثبيت العصابة جيداً؛ إنَّها لتعليمات لا لزوم لها تناسب الحمقى لا نجد بينها ولا تعليمة جيدة تناسب العقلاء.

15- درب الأزهار مفروش بأوراق اللعب والزهر والمال والحلي النفيسة وحكايا خرافيَّة وروايات، كل ذلك كأنَّه عبارة عن أسرة من الخضرة وحسناوات لا تبدي أيّ مظهر للقسوة.

16- في درب الكستناء، لدينا كرات ومجسمات للكرة الأرضيَّة ومناظير وكتب وظلال وصمت.

17- لدى خروجنا من نومنا العميق، نجد أنفسنا في درب الأشواك، نرتدي لباسنا الأبيض مع عصابة

(1) هو قميص مصنوع من مادة معدنيَّة، يلبسها الإنسان كطقس ديني للتقرب من الله.

مضحكة على العينين، ندرك كم هو صعب التجول على غير هدى بين نبات العليق والقراص، ومع ذلك هناك جنود يشكرون العناية الإلهيَّة على وجودهم في هذا المكان، ينعمون صادقين بتلك الآلام الدائمة التي عليهم أن يكابدوها، وهم نادراً ما يرزحون تحت فكرة أن يلطخوا ثوبهم، أمَّا العصابة فلا يخطر ببالهم بالمطلق لا نزعها ولا تمزيقها، وهم يؤمنون تماماً بأنَّ كلما كانت الرؤية أقل وضوحاً اتجهوا باتجاه الطريق القويم واثقين برضا الأمير من استخدامهم القليل لعيونهم ومن العناية الخاصة التي أولوها لثوبهم.

18- هؤلاء المحمومون سعداء، لا يشعرون بالأسف على خسارة عضو لا يعرفون قيمته، يتمسكون بتلك العصابة كأنَّها زينة ثمينة ويسفكون دماءهم حتى آخر قطرة من أجلها، بدلا من التخلص منها، ويتلذذون في فكرة أنَّ أثوابهم بيضاء، يعتادون الأمر لدرجة أنَّهم لا يشعرون بالأشواك، يسلكون الطريق وهم ينشدون تبجيلاً للأمير أناشيد رغم قدمها لم تكن أقلّ جمالاً.

19- لندعهم غارقين في أحكامهم المسبقة، فقد نخاطر كثيراً بنزعها عنهم، فهم لا يدينون بفضائلهم إلا إلى حالة العمى التي هم فيها، وإن نحن خلصناهم من تلك العصابة، من يدري ربما أعاروا نفس الاهتمام لثوبهم؟

وقد ظهر أحدهم في درب الأشواك والذي قد يتعذب، وسوف يتعذب فيه، حتى إنَّنا ربما أثناء مرورنا في درب الأزهار أو درب شجر الكستناء قد نعاني التعذيب، وبهذا نتميز في هذا الدرب أو ذاك.

20- شوارع هذا الطريق الحزين يشغلها أناس قاموا بدراسته جيداً، ويتباهون بمعرفته ويرشدون المارة، ولكنَّهم ليس لديهم السذاجة في اتباعه.

21- عموماً إنَّه العرق الأخبث الذي أعرف: متعجرفون وبخلاء ومنافقون وماكرون وحاقدون ومحبون للخصام والشجار على وجه الخصوص، ويأخذون من الأخ Jean des Entommeures سر

القضاء على أعدائهم باستخدام عصا الراية، ويتقاتلون أحياناً بسبب كلمة إن سمح لهم بذلك، لا أعرف كيف استطاعوا إقناع المجندين بأنَّ لديهم هذا الامتياز الحصريّ بقدرتهم على إزالة البقع عن الأثواب ممَّا يجعلهم ضرورة حتميَّة لأناس من السهل إقناعهم أنَّ أثوابهم متسخة طالما أن أعينهم مغلقة.

22- هؤلاء المعتدون يتنزهون ويقضون النهار في درب الأشواك، ويمضون الليل في درب الأزهار دون إحراج، يدعون أنَّهم قرؤوا في قوانين الأمير بأنَّ ليس من حقهم أن يمتلكوا نساء لهم، ولكنَّهم لم يتنبهوا لقراءة أنَّه يمنع عليهم الاقتراب من نساء الآخرين، ومع ذلك يقتربون من نساء المسافرين.

لن تصدق كم يلزمهم من حذر ليخفوا ذلك عن نظرائهم؛ لأنَّهم يهتمون بفضح أحدهم الآخر، حين ينجحون في ذلك، وهذا ما يحصل غالباً نتأوه بورع بفعل ذلك في دربهم ونضحك ملء أشداقنا في درب الأزهار

ونهزأ من ذلك في دربنا، إن كانت مناورتهم تنتزع منَّا بعض المواضيع فإنَّ سخافتهم تعوض لنا؛ لأنَّ من العار على الإنسانيَّة أن يخشون الفكاهة أكثر ممَّا يخشون المنطق.

23- لإعطائك فكرة أكثر دقة، يجب أن نشرح لك كيف لهيئة يتعدد فيها هؤلاء المرشدون تشكل قاعدة أركان، مع رتب عليا ومعاونين برواتب تنقص أو تزيد حسب المنصب بأزياء وألوان مختلفة، وكل هذا في تغير حتى النهاية.

24- بداية هناك نائب للأمير الذي اعتاد التنقل بالعربة أو أن يحمل على محمل فهو يخشى من أن يسلخ باطن قدميه التي أصبحت ناعمة كالوثير، يعلن نفسه الخادم الأكثر تواضعاً في العالم كله، ويؤلمه أنَّ أتباعه يؤكدون أنَّ كلَّ العالم عباد له، وبتكرار ذلك استطاعوا إقناع الحمقى بذلك، وبالنتيجة إقناع الكثير من الناس، وفي تقصي الحقائق نلتقي في بعض المناطق من درب الأشواك بمجندين بعُصابة بدأت بالاهتراء الذين

يستنكرون استبداد نائب الأمير المزعوم، ويرفضون المخطوطات القديمة التي تحوي مراسم اعتقال لجمعيَّة الأمم العموميَّة، وفي كلّ مرة يكتب لهم بأنَّهم على خطأ، وإن اعترض المتمردون على ذلك فإنَّه يقطع عنهم المعاش وجميع مستحقاتهم وأحياناً يمارس عليهم إهانات كبيرة، يمتلك سيادة كبيرة عليهم حيث تقوم تجارته على الرقوق والصابون فهو المطهر الأوَّل بفضل ما يمتلك من ميزة حصريَّة يمارسها بكلّ خبث مقابل التمويل، وأسلافه الأوائل كانوا يتسكعون في درب الأشواك، وبعض من أحفادهم تاهوا في درب الأزهار، والبعض الآخر تنزهوا تحت أشجار الكستناء.

25- تحت قيادة هذا الرئيس، هناك حكام ونواب لهم؛ البعض يبدو نحيلاً وشاحب اللون، والبعض الآخر يبدو متورداً ومتألقاً، والبعض الآخر كان حاذقاً وشجاعاً، يشكلون هيئة فرسان تتميز باستخدامها لعصا ولغطاء رأس كتلك التي كانت تستخدمها كهنة الإلهة Cybèle[1] سيبال،

(1) تمثل عند الإغريق أم الآلهة.

ويتمتعون بمزايا ضباط الأمير ويعدّهم نائب الملك خدمه، ويديرون محلات الصابون، لكن بجودة أقلّ، وبذلك بتكلفة أقل من تلك التي عند نائب الملك، ولديهم سر صناعة البلسم بجودة عالية أيضاً.

26- يأتي بعدهم ضباط ينتشرون في مواقع مختلفة، ويخصص لهم مناطق صغيرة فاخرة، فإنَّ الأغلبيَّة تأتي مشياً على الأقدام، والبعض الآخر على الأحصنة، والقليل في عربة، ووظيفتهم الرئيسة هي تدريب المجندين، وخداع المنتسبين الجدد بخطابات عن ضرورة وضع العصابة والحفاظ على ردائهم نظيفاً، علماً أنَّ هذين الأمرين مهملان من قبلهم، وشغلهم الشاغل هو إصلاح عصابات المنتسبين، وتنظيف أثوابهم.

27- كنت قد نسيت الحديث عن جماعة صغيرة منفصلة، تحمل على رأسها قلنسوة تعلوها زهرة الفاوانيا مع رداء قصير من جلد القطط؛ هؤلاء الناس يكرسون أنفسهم للدفاع عن حقوق الأمير؛ إذ إنَّ غالبيتهم لا

يعترفون بوجوده، منذ مدة وجيزة فرغ مكان مهم في هذه الجماعة، ثلاثة متنافسين تزاحموا عليه: أحمق وجبان وهارب، هذا يوافق تماماً لو أنّي قلت: جاهل و متحرر وملحد، لقد فاز الهارب، كانوا يتسلون بالنقاش بمفردات بربريَّة حول النظام الذي كانوا يفسرونه ويشرحونه وفقا لمخيلتهم، من الواضح أنَّهم كانوا يهزؤون به، هل تصدق أنَّ واحداً من ضباطه أكد أنَّه حين يقوم ابن الأمير بإحصاء أتباعه فإنَّه يستطيع أيضاً أن يأخذ شكل الحمل من أن يأخذ شكل الإنسان.

كان الأقدمون من هذه المجموعة يثرثرون لدرجة يمكن القول أنَّهم لم يفعلوا شيئا آخر بحياتهم، أمَّا الشباب منهم فبدؤوا يملون من عصابتهم التي لم يبق منها إلا نسيج أو لم يبق شيء أبداً، ويتنزهون بحريَّة في درب الأزهار، ويجيئون إلينا عند المغيب تحت أشجار الكستناء، ولكن في السر.

28- لننتقل الآن للحديث عن جماعات مساعدة تحت

قيادة ضباط أغنياء جداً؛ إنَّهم يعيشون على الغنائم التي يجمعوها من المسافرين، يحكى قديماً أنَّ غالبيتهم كانوا يختلسون بمهارة من هؤلاء الذين يقتادونهم إلى مواقعهم العسكريَّة؛ من أحدهم يختلسون قصراً، ومن الآخر مزرعة، ومن الآخر غابة، وبهذه الطريقة استطاعوا بناء أحياء رحبة واسعة بين درب الأشواك ودرب الأزهار، بعضهم كانوا يمدون أيديهم للتسول أو يسلبون المارة؛ هذه الجماعات الوضيعة قسمت إلى كتائب لكلّ منها راية وزي خاص وقوانين أكثر تفرداً.

لا تنتظر مني أن أصف لك الأجزاء المختلفة لأسلحتهم، جميعهم تقريباً يرتدون خوذة بكوّة، تغطي رؤوسهم حيناً، وتسقط على أكتافهم حيناً آخر؛ لقد حافظوا على شوراب Sarrazius وانتعلوا ما يشبه أحذية الرومان، وفي بعض المناطق من درب الأشواك نجد في هذه المجموعة ضباطاً ونبالين وجلادين.

لدى المجلس الحربيّ للجيش قواعد صارمة، فهو

يحرق المسافرين أحياءً إن رفضوا وضع العصابة، وهؤلاء الذين لا يضعوها وفق طريقتهم والهاربين الذين ينزعونها أيضاً، ومن هنا، وبعد معارك عنيفة تخرج أسراب من المنتسبين الذين يعدون أنفسهم مكلفين بالقتال في البلاد الأجنبيَّة ليجندوا في أراضي الآخرين، ويقنعون الأفراد في المملكات الأخرى بترك لباسهم وشاراتهم وقبعاتهم والعصابات التي أخذوها ليرتدوا زي درب الأشواك، وحين نقوم باعتقالهم نشنقهم، إلا إذا استطاعوا الهرب، ويفضلون أن يكونوا هاربين على أن يكونوا مشنوقين.

29- الجميع ليسوا بالمغامرين الشجعان، فهم لا يبحثون عن المغامرة في البلاد البعيدة و البربريَّة، وهم منغلقون في نصف كرة ضيقة، وهنا نجد أنَّ البعضَ ينشغلُ باهتمامات مختلفة تبعاً لمواهبهم وتوجهات رؤسائهم الذين يستغلوها بحذق لمصلحة هيئتهم: هناك من وهبتهم الطبيعة ذاكرة جيدة وحنجرة جميلة مع بعض من الجسارة، فينادوا على المارة ليضلوا الطريق دون أن يرشدوهم على الطريق القويم، وهناك من يمتلكون

المرونة في الفكر والقدرة على السرد، يقيمون في ما يشبه القفص حيث يقضون نصف حياتهم وهم يستمعون إلى اعترافات نادراً ما تكون مسلية، بل خاطئة، وهي على الدوام مربحة.

يطغى المزاج والحزن في هذه الأماكن عادة، ومع ذلك قد نرى الحب يفاجئ قلوباً لا خبرة لديها ليجرجر الحجاج الشباب في درب الأزهار، بحجة أنَّه يبرهن لهم أنَّ المشي في درب الأشواك لم يعد مريحاً، هنا كل شيء مكشوف: الأسرار، والثروات، والأعمال، والمكائد، والغيرة.

كل شيء له مقابل، فالاستشارات نادراً ما تكون مجانية، من لا يمتلك الإبداع والعبقريَّة يترك لعلم الأرقام أو يعهد له كتابة وتدوين أفكار الآخرين، هناك من يجهد نظره لدراسة قطعة أثريَّة ليستدل من خلالها على تاريخ مدينة لم يحك عنها منذ آلاف السنين، وهناك من يجهد نفسه لعشر سنوات ليصنع من طفل ولد حديثاً شخصاً أحمقَ، وهناك من يستخدم الفرشاة والمسحاة والمسحاج.

والكثير لا يعمل شيئاً، ويتفاخرون بأهميتهم، من يعرف هؤلاء الناس إمَّا يخشاهم وإمَّا يتجنبهم، وقلة من يعرفونهم من الداخل.

30- إنَّها لمعجزة تلك الثقة والحيطة التي تعطى لهؤلاء الذين يتبجحون بامتلاك وصفة تشفي كلَّ الآلام، وهذه الوصفة تنصُّ على أن تقولَ لزوج غيور بأنَّ امرأته ليست أنيقة أو أن تقولَ له أنَّه عليه أن يحبها كما هي، وأن نقول لامرأة لبقة بأنَّ عليها أن تكتفي بزوجها ابن الستين عاماً، وأن تقول لوزير بأن يتحلَّى بالنزاهة، ولتاجر بأنَّه قد أخطأ بكونه مرابياً، ولغير المؤمن بأنَّ عليه الإيمان ...هل ترغب بأن تشفى؟ يقول «التجريبي»: نعم، أرغب بذلك، اذهب، وها أنت معافى، وبذلك يغادرون راضيين، حتى يقال إنَّهم بأفضل حال.

31- منذ فترة ليست طويلة، نهضتْ طائفةٌ من بين المرشدين مؤلفة من عدد لا بأس به من الناس المتقشفين، كانوا يرهبون المسافرين حول ضرورة بقاء الثوب ناصع

البياض، وكانوا ينادون في البيوت والشوارع والمعابد بأنَّ أقلَّ لطخة صغيرة هي بقعة لا يمكن محوها، وأنَّ صابون نائب الأمير والنواب لا يساوي شيئاً، وعليهم أن يحصلوا على الصابون من مخازن الأمير ويبللوه بدموعهم، ويوزع مجاناً، لكن بكميات صغيرة؛ هؤلاء المسعورون ينثرون الطريق بالمصائد والخنادق، كما لو أنَّه لا يوجد فيه ما يكفي من الأشواك، فيغدو غير سالك.

ييأس المسافرون ويُسمَع الصراخ والأنين من كلّ صوب، ولاستحالة عبور هذا الطريق الشاق، فنحن على وشك أن نندفع نحو درب الأزهار، أو نمرّ تحت أشجار الكستناء، حينها تبتدع الكتيبة السوداء خفّاً من الزغب وقفازات من المخمل؛ هذا الإجراء الملائم يمنع الفرار والانسحاب العام.

32- من فضاء إلى فضاء، نصادف أقفاصاً كبيرة، تحتجز طيوراً من الإناث جميعها؛ هي ببغاوات مخلصة تحكي أحاديث وديَّة أو تغني بلغة لا تسمعها، هنا يمامات

صغيرة تأسف وتتحسر على حريتها الضائعة، وهناك -بعيداً- عصافير linottes[1] ترفرف و تشعر بالدوار من هديل اليمام؛ حيث يتسلى المرشدون بالصفير لها عبر قضبان الأقفاص، من بين هؤلاء المرشدين، هناك من لديه عادة تقديم أزهار الزنبق والورد الجوري لهم، وما يؤلم هؤلاء الأسرى أنَّهم يسمعون المسافرين يمرون، ولا يستطيعون اللحاق بهم، ومع ذلك فإنَّ أقفاصهم رحبة ونظيفة، فيها الكثير من بذور الدخن و السكاكر.

33- لا بدَّ أنَّك تعرف الآن الجيش ورؤساءه: لننتقل الآن إلى القانون العسكريّ.

34- إنَّه نوع من أعمال الفسيفساء منفذة من قبل مختلف العمال الذين أضافوا قطعة تلو الأخرى تبعاً لذوقهم: سوف تحكم إن كان العملُ جيداً.

35- هذا القانونُ مؤلفٌ من كتابين: الأوَّل بُدِئ به نحو عام 45.317 من العصر الصيني برعاية راعٍ عجوز

(1) هو الطائرُ الطنان.

يعرف جيداً اللعب بالعصا من كلا طرفيها، وكان إضافة إلى ذلك ساحراً كبيراً، أبرز مقدراته أمام رئيس رعيته الذي لم يرد أن يعفيه من مهمته أو يخفف من شأنه، فترك منطقته يتبعه النبالون، والتجأ إلى مزارع وأخذ يرعى له الماشية مدة أربعين عاماً في صحراء حيث مارس الشعوذة.

لقد أكَّد أنَّه ذات يوم رأى أميرنا من دون أن يراه، وأنَّه حصل على رتبة ملازم مع عصا الحكم، وعاد إلى بلاذه مزوداً بهذا النفوذ تحت دهشة أهله وأصدقائه، محرضاً إيَّاهم على اتّباعه لبلد يدعي أنَّه يتبع لأسلافه الذين كانوا في الحقيقة قد سافروا إليه؛ هؤلاء هم المتمردون مع رئيسهم الذي يعلن نيته بالرحيل أمام سيد الرعية؛ هذا الأخير يرفض أن يدعهم يذهبون ويعلن أنَّهم متمردون.

في تلك اللحظة تمتم الراعي العجوز بعض الكلمات سببت تسمم مياه البرك، وفي اليوم التالي استجلب الأذى بالسحر على الغنم والأحصنة، وفي يوم آخر سبب الجرب والإسهال للسيد وأتباعه، وتسبب بموت ابنه الأكبر

أيضاً، وإصابة الصبية في القرية بالحمى، وفي نهاية المطاف قبل السيد أن يدعهم يرحلون، رحلوا فعلاً، لكن بعد أن نهبوا القصر وسلبوا ما بقي من السكان. ركب السيد حصانه وتبعهم على رأس خدمه، عبر قطاع الطرق هؤلاء النهر، ولحسن حظهم حاول سيدهم السابق عبور النهر إلا أنَّه غرق مع أتباعه جميعاً.

36- قبل أن يصلوا إلى المنطقة الموعودة تاهوا في الصحاري حيث ألهاهم الساحر طويلاً إلى أن هلكوا جميعاً، في هذه الفترة انشغل بإعداد حكاية أمته، وبتأليف الجزء الأوَّل من الكتاب.

37- تأسَّستْ حكايته بالكامل على قصص رواها الأجداد على أحفادهم من خلال سرد شفهيّ رواه أجدادهم، وبدءاً من أوَّل قصة، سر ناجع حتى لا تشوه حقيقة الأحداث!

38- يحكي كيف أنَّ ملكنا بعد أن أسَّس مقراً لإمبراطوريته، أخذ قليلاً من الطين ونفخ فيه فأحياه

وأنشأ أوَّل جندي، وكيف أنَّ المرأة التي أعطاها له حضرت طعاماً سيئاً، ونقلت إلى أطفالها وجميع السلالات القادمة لطخة سوداء جعلتهم مكروهين من قبل الأمير، وكيفيَّة تضاعف الكتائب، فأصبح الجنود خبثاء حتى جعلهم ملكهم يغرقون ويهلكون جميعاً، باستثناء مهجع كان رئيسه رجلاً صالحاً، وأعاد أبناء هذا الأخير إعمار الأرض، فانتشروا على عرض مساحتها، وإنَّ أميرنا أمام رفضه لجميع الأشخاص لم يقبل منهم إلا فئة قليلة عدَّها شعبه، وجعل هذا الشعب يولد من امرأة ليست قادرة على الإنجاب، ومن رجل عجوز قاسٍ كان ينام مع خادمته من حين لآخر، هنا بدأ بالضبط أصل المختارين الأوائل، الذي حدثتك عنه سابقاً، وسندخل في الحديث عنهم وعن مغامراتهم.

39- يقال عن أحد الأشخاص أنَّ الحاكم أمره أن يذبح ابنه، وكان الأب على وشك أن يطيعَ أمره عندما جاء أجير وجلب له الرحمة، ويقال عن آخر إنَّ الملك وجد له، وهو يسقي حصانه امرأة جميلة جداً، وعن ذاك

الذي خان حماه بعد أن خان أباه وأخاه الأكبر حيث نام مع الأختين، ومن ثم مع خادمتيهما، وعن ذلك الذي حقق ثروة طائلة بامتهانه معرفة الأحاجي وجعل عائلته مترفة، وعن هؤلاء الذين كانوا يملكون الرؤى الجميلة، وكانوا يرون النجوم في منتصف الليل، وكانوا معرضين للقاء أرواح، وكانوا يقاتلون بضراوة ضد العفاريت؛ تلك كانت الأمور الكبيرة التي نقلها الراعي العجوز إلى الأجيال القادمة.

40- أمَّا بالنسبة للقانون فإليكم المواد الأساسيَّة منه: لقد سبق أن قلت أنَّ البقعةَ السوداء جعلتنا جميعاً ذميمين لدى الأمير، نحن ماذا علينا أن نفعل لنسترد نعمه الفريدة التي فقدناها؟

هو شيء أكثر تفرداً أن نقطع لجميع الأطفال قطعة لحم، عمليَّة سبق وأخبرتك عنها، وحكم علينا أن نأكل كلّ عام شطيرة من دون زبدة وملح مع سلطة من الهندباء البريَّة من دون زيت، ضريبة أخرى تدفع كلّ أسبوع هي

أن نمضي يوماً ونحن موثقو الأذرع خلف ظهرنا، إلزام الجميع بالتزود بعصابة وبثوب أبيض، وأن يغسله بدم الحمل والماء النقي تحت عقوبة الموت، هل تدرك الآن أنَّ أصل العصابة والثوب الأبيض قديم جداً، وتحقيقاً لهذه الغاية كان يوجد جمع من اللحامين وحمالي الماء.

عشرة أسطر احتوت على كل أوامر الأمير، قام المرشد بنشرها ثم وضعها في صندوق من خشب الورد، وحتى يعيد الوحي، فإنَّه لم يتنازل عنه لدى سيبيل Sibylle[1] نبية Delphes[2]، ما تبقى ليس إلاَّ مجموعة من القواعد الاعتباطيَّة تتعلَّق بشكل اللباس ووصفات الطعام، ونوعيَّة النبيذ، ونوع اللحوم ،ووقت النزهة، والنوم، وكل ما تبقي من أعمال نقوم بها حين لا نكون نائمين.

41- كان الراعي العجوز وبمساعدة أحد إخوانه، والذي حظي بمنحة عظيمة ورَثها عن العائلة يرغب

(1) نبية يقال إنَّ أبوللو أعطاها هبة تنبؤ المستقبل.

(2) هو معبد مخصص للإله أبوللو عند الإغريق.

بإخضاع جميع أتباعه على اتباع قواعده، سريعاً ما احتشد الجموع منكرين عليه سلطته، وكان سيخسر نفوذه لو لم يقضِ على جميع المتمردين من خلال منجم نُفذَ تحت الأراضي التي كانوا يشغلونها، وبدا ذلك الحدث كانتقام من السماء، والرجل المعجزة لم ينقذ أحداً من ضلاله.

42- بعد عدة مغامرات أخرى، اقتربنا من البلد الذي كان علينا أن نضعه تحت سيطرتنا، والقائد الذي لم يرغب أن يضمن ذلك لأتباعه، ولم يكن يحبّ الحرب إلا من بعيد سيموت من الجوع في مغارة بعد أن طلب منهم ألا يرحموا أعداءهم وأن يكونوا مرابين، هما مهمتان قاموا بإنجازهما بوجه رائع.

43- لن أتبعهم لا في فتوحاتهم ولا في تأسيسهم لإمبراطوريتهم، ولا في ثوراتهم المختلفة؛ هذا ما يتوجب أن تبحث عنه في الكتاب نفسه حيث سترى مؤرخين، وشعراء، وموسيقيين، وروائيين ومنادين يعلنون قدوم ابن ملكنا وإصلاح القانون.

44- في الواقع، لقد ظهر من دون طاقم يليق بولادته إنَّما جاء كبعض المغامرين الذين نراهم يؤسسون أو يفتحون إمبراطوريَّات مع حفنة من الرجال الشجعان والحازمين؛ تلك كانت الموضة في ذلك العهد، إلا أنَّ أبناء بلده حسبوه لفترة طويلة رجلاً كأيّ رجل إلى أن جاء يوم وسمعوه يلقي خطاباً وينتحل صفة ابن الحاكم، وقدرته على إلغاء القانون القديم باستثناء عشرة السطور المحفوظة في الكتاب، وأن يستبدل آخر به- كان بسيطاً في خطاباته وفي عاداته- لقد أعاد استخدام العصابة والثوب الأبيض تحت عقوبة الموت، وأمر بأشياء تستحق الثناء حول الثوب، لكن تطبيقها أكثر صعوبة ثم تحدث بحكم غريبة تتعلق بالعصابة، لقد سبق وحدثتك ببعضها، وإليك أخرى: كان يريد حين تكون أعيننا معصبة أن نرى كما لو كنَّا في وضح النهار، وبأنَّه مع أبيه وشخص ثالث كان في الوقت نفسه أخوه وابنه؛ هؤلاء الثلاثة لا يشكلون إلا واحداً.

ربَّما تعتقد أنَّنا نتحدث عن جاريون Gérion[1]، إلا أنِّي أعذرك باللجوء إلى هذه الحكاية الخرافيَّة لتفسير تلك المعجزة، يا لك من بائس، فأنت لا تعرف شيئاً عمَّا يسمى التطويق[2] فلم تطلع مطلقاً على الرقص العجيب حيث يطوف الأمراء الثلاثة الواحد حول الآخر، وبأبديَّة كليَّة.

لقد أضاف أنَّه ذات يوم سيكون السيد العظيم، وبأنَّ رسله سيعقدون طاولة مفتوحة، وبذلك تكون النبوءة قد اكتملت.

أعدَّ الأوائل الذين كرموا بهذه الصفة وجبات طيبة، وشربوا نخب صحته، واكتشف من جاء بعدهم -لا أعرف كيف- بأنَّ معلمهم لديه سر الاختفاء في كسرة خبز، وأنَّه يجعل هذه الكسرة تبتلع بلحظة واحدة من قبل الملايين من أصدقائه دون أن يسبب لأيّ منهم عسر هضم.

(1) شخصيَّة خياليَّة عبارة عن عملاق مخيف.
(2) ثلاث شخصيَّات مقدّسة تتواجد الواحدة في الأخرى.

لقد أمروا أن تقلب وجبة العشاء إلى وجبة غداء لا ماء فيها، وبعض الجنود العطشى تهامسوا حول الأمر، فوصل الأمر إلى الشتائم والإهانات، ثم إلى الضربات، وسفك الكثير من الدماء، وعلى أثر ذلك الانقسام الذي سبب انقسامات أخرى أفرغ درب الأشواك من نصف سكانه وبعد ليلة أفرغ بالكامل.

أقدّمُ لك هذه القصة كعيّنة من السلام الذي جلبه المشرع الجديد إلى مملكة أبيه، وسأذكر سريعاً بعضاً من أفكاره التي نظمت من قبل أمناء سره (أهم اثنين منهم كانا الإسكافي الذي كان أحد رجال الحاشية وبائع الأسماك سابقاً).

45- لقد بدأ بالحديث عن أشياء لم يسمع بها من قبل عن التأثيرات العجيبة لعصا غير مرئيَّة، يوزعها الأمير على جميع أصدقائه، يلزمني مجلدات لأروي لك بإيجاز عمَّا كتبه وأكّده وخمنه المرشدون، وكيف اختلفوا حول طبيعة وخصائص وقوة هذه العصا.

ادّعى البعض أنّه من دون العصا لا يمكن السير خطوة واحدة، على عكس البعض الآخر بالنسبة لهم أنّه غير مفيد البتة طالما أنّنا نمتلك ساقين قويين ورغبة كبيرة بالمشي، فإن كانت العصا قاسية أو مرنة، قوية أو ضعيفة، قصيرة أو طويلة، وتبعاً لقدرة اليد وصعوبة الطريق فإنّنا لا نفشل بالمشي إلا بخطأ منّا، كلّ هذه الآراء اتخذت أساساً لها مقالة كبيرة عن العصي أُلّفَت من قبل أستاذ في علم البلاغة حول أهميّة استخدام العكازات.

46- سنتناول الآن مادة أخرى تتعلق بالطيبة اللامحدودة لملكنا، من خلالها ادّعى هذا الأستاذ البليغ أنّه تم تسوية قرار مسبق ثابت لا رجعة فيه بإقصاء من بلاطه للأبد، ووضعهم في زنزانة دون أدنى رحمة، وكلّ من لم يكن قد انتسب، وكلّ تلك الشعوب التي لا تعد، والتي لم تكن قد سمعت عنه أو لم يكن بمقدورها السماع عنه، والكثير غيرهم ممن حرمهم من رحمته بسبب عصيان جدهم، في حين أنّه يدع الأقدار للنصيب، فيتعاطف حتى مع المجرمين.

شعر هذا المرشدُ بسخافة أفكاره، وكلّ تلك الأشياء وغيرها الآلاف التي تمتلك نفس القوة مطبقة جميعها في درب الأشواك، وكلّ من يتبعها يعدّها حقيقيَّة ويعترفون أنَّه إن كان من بينها واحدة فقط خاطئة فستكون جميعها خاطئة.

47- ومع ذلك انتفض المدافعون عن النظام القديم ضد ابن الأمير وطالبوه بشجرة نسبه مدعمة بأدلة، فأجابهم باعتزاز: إنَّ أعمالي هي التي تثبت أصلي؛ جوابٌ جميلٌ قد لا يناسبُ إلَّا بعض النبلاء.

ادَّعوا أنَّه أضعف ذاكرة الراعي العجوز، وتحت هذه الحجة حاكَ اللحامون وحمالو الماء مؤامرة ضده بعد أن هددهم بأن يستبدل منظفي الملابس وقصاري الأجواخ بهم، لقد تم رشوة أمين صندوقه فاعتقل وحوكم بالإعدام وتم تنفيذ الإعدام.

نشر أصدقاؤه بأنَّه مات وبأنه لم يمت وأنه عاد للظهور بعد ثلاثة أيام، إلا أنَّ تجربة الماضي جعلته يبقى في بلاط

والده ومنذ ذلك الحين لم نعد نراه، عند مغادرته كلف أصدقاءه بحفظ قوانينه ونشرها وتعجيل تنفيذها.

48- يمكن أن تتخيل بأنَّ قوانين صماء تكون خاضعة للتفسير، وهذا ما حصل بالنسبة لقوانينه: وجدها البعضُ قوانين متسامحة، والبعض الآخر صارمة أو سخيفة، ومع نشوء الفيلق الجديد وتوسعه عانى من انقسامات داخليَّة وعوائق خارجيَّة.

لم يرحم المتمردون مرافقيهم ولم يحصلوا مع مرافقيهم على شيء من أعدائهم المشتركين، والأحكام المسبقة والتربية والتعنت على بعض الأشياء الجديدة والمحرمة؛ كل ذلك زاد من عدد المتحمسين لدرجة أنَّهم احتشدوا وأساؤوا لمضيفيهم، يتم محاكمتهم بداية بعدّهم مدّعي رؤى ثم كمثيري الفتن، والغالبيَّة من الواثقين أنَّه يمكننا التودد للأمير بأن ندع أنفسنا نذبح لأسباب لم نسمع بها يتحملون العار وقسوة العذاب، ونرى مثيري الاضطرابات والحمقى يرفعون إلى مرتبة الأبطال؛ إنَّه

تأثير عجيب لبلاغة المرشدين!

أصبح درب الأشواك مأهولاً بالسكان مرتباً على درجات، وفي البدء كان درب الأشواك خالياً من السكان، لكن بعد موت ابن ملكنا بفترة طويلة أصبح لديه جماعات وأثار الضجة في العالم.

49- لقد حدثتك بما يكفي حتى تخمن أنَّه لا يمكن لأحد أن يؤثر بأشياء كثيرة، ومع ذلك اعلم أنَّه عاش ومات مغموراً، وكان من الممكن أن أشرح لك هذه الظاهرة، لكن أفضل أن أنقل لك حديث عجوز من سكان درب أشجار الكستناء مع بعض مزارعي درب الأشواك، أخذت هذه الحكاية من مؤلف بدا لي على معرفة بما جرى في ذلك الوقت، ويروي المؤلف أنَّ شجرة الكستناء توجَّهت بالحديث إلى مواطني ابن ملكنا المزعوم فأجابوه أنَّه أقام طائفة من المتنبئين الذين سيقدمون له وللروح القدس دجالاً ومثيراً للفتن الذي يصلبه قضاة الإقليم، يضيف بأنَّ Menippe وهو اسم شجرة

الكستناء، بدأ يستجوب مزارعي درب الأشواك.

نعم، إنَّ رئيسنا قد صلب بعدّه مثيراً للفتن، لكنّه كان رجلاً مقدساً، وأعماله جميعها كانت تنطوي على معجزات: كان يحرر الممسوسين، ويجعل العرج يمشون، ويعيد النظر للعميان، ويحيي الأموات حتى إنّه أحيا نفسه ولقد صعد للسموات، وأعداد كبيرة منا رأوه فكانوا شهوداً على معجزاته.

50- حقاً، إنَّ هذا جميل أضاف Menippe: إنَّ المشاهدين من كثرة العجائب لا بدَّ أنَّهم انتسبوا جميعاً، وإنَّ سكان البلد جميعهم لم يفتهم ارتداء الثوب الأبيض و العصابة....

أجاب هؤلاء: للأسف، لا!

إنَّ عدد من اتبعه كان صغيراً جداً بالمقارنة مع العدد الآخر، كانوا يمتلكون عيوناً، ولكنَّهم لم يروا، وأذنين ولكنَّهم لم يسمعوا ...

- آه ! قال Ménippe، عائداً من دهشته: إنِّي أرى ما ذا يكون، أجد أنَّ السحر كان عادياً بالنسبة لهؤلاء، ولكن حدثني بصدق، هل جرت الأمور كما تروونها؟ و الأعمال الكبيرة لضابطكم هل نشرت حقا؟- لقد انتشرت في كامل أرجاء الإقليم! يكفي أن يلمس ذيل ثوب المريض ليشفى.

لقد قام بإطعام خمسة أو ستة آلاف لعدة مرات، ما يكفي بالكاد خمس أو ست أشخاص، ناهيك من معجزات أخرى لا تنتهي، فقد أحيا ميتاً أثناء دفنه، وذات يوم أحيا ميتاً بعد دفنه بأربعة أيام.

51- عند هذه المعجزة الأخيرة، قال Ménippe: إنِّي متأكد من أنَّ هؤلاء الذين رأوه سجدوا أمام قدميه وعبدوه كأنَّه الله ... - في الواقع هناك من آمن به وانتسب إليه ولكن ليس الكل. على العكس، الغالبية ذهبوا يحكون للحامين وحمالي الماء(أعداؤه اللدودون) عمَّا رأوه ويحرضونهم ضده.

أمَّا أعماله الأخرى فلم تعطِ سوى هذا الأثر، إن كان البعض ممن كانوا شهوداً انتسبوا إليه فذلك لأنَّه قدر لهم اتباعه، أعتقد أنَّ هناك تفرداً في تصرفه إزاء هذا الأمر: إنَّه لفت الانتباه إلى الأماكن التي تنبأ بأنَّهم لم يعد لديهم الرغبة باستخدامها.

52- في الحقيقة أجاب Ménippe: لا بدَّ أنَّ هناك بساطة من طرفكم أو حماقة من طرف خصومكم، أرى بسهولة (ومثلكم يسمح لي بهذه الفكرة) أنَّه يمكن أن نلتقي بأناس حمقى لدرجة أن يتخيلوا أنَّهم يرون أعاجيب عندما لا يرون منها شيئاً، لكن لا يمكننا أن نفكر أنَّ هناك أناساً أغبياء لينكروا عجائب واضحة وضوح الشمس كتلك التي ترونها.

يجب الاعتراف بأنَّ بلدكم ينتج رجالاً لا يشبهون أحداً على وجه هذه الأرض، ما نراه في بلدكم لا نراه في أيِّ مكان آخر.

53- أعجب Ménippe بسذاجة هؤلاء الناس

الذين بدوا متعصبين من الدرجة الأولى، ولكنَّه حتى يشبع فضوله أضاف بلهجة بدت تنكر كلماته الأخيرة: ما سمعته للتو يبدو لي عجيباً غريباً جديداً لدرجة أنَّه تتملكني رغبة بمعرفة المزيد عن كلّ ما يتعلق برئيسكم؛ إنَّ رجلاً بقداسته يستحق حتماً أن يعلم الكون أجمع بأقلّ تفاصيل حياته.

54- مارك أحد أوائل المستوطنين في درب الأشواك، يتباهى أن يكون جنديا لـ Ménippe بدأ يقص بالتفصيل كلّ مآثر ضابطه، كيف ولد من امرأة عذراء وكيف اعترف المجوس والقساوسة بألوهيته منذ ولادته، وعن المعجزات في طفولته وسنواته الأخيرة، وعن حياته ومماته وبعثه، لم ينسَ شيئاً، لم يكتفِ مارك بالحديث عن أعمال ابن الإنسان (هكذا كان معلمه يحب أن يلقب في حال وجود خطر باتخاذ ألقاب مترفة)، بل تحدث عن أقواله وخطبه وحكمه حتى اكتملت التعاليم عن تاريخه وعن قوانينه.

55- بعد أن توقف مارك عن الكلام، استأنف Ménippe ، الذي أصغى إليه بصبر دون أن يقطع حديثه، الكلام لكن بلهجة معلنة عدم استعداده لمزيد من الالتزام : «إنَّ حكم رئيسكم تعجبني، أراها متطابقة مع تلك التي علمونا إيَّاها الرجال العقلاء الذين ظهروا على الأرض من أكثر من أربعمائة عام قبله.

لقد ذكرتها على أنَّها جديدة، قد تبدو كذلك لقوم حمقى، ولكنَّها قديمة بالنسبة لباقي الناس؛ إنَّها توحي لي بفكرة، عليَّ أن أخبرك إيَّاها: المدهش في الأمر أنَّ الذي بشر بها لم يكن رجلاً أكثر انسجاماً في أفعاله، لا أفهم كيف لرئيسكم الذي يحترم الأعراف أن يقوم بالكثير من الأعاجيب.

56- أضاف Ménippe: لكن إن كانت أخلاقه لا تبدو لي جديدة، إلا أنّي أعترف بأنَّ أعاجيبه كانت جديدة عليَّ بالكامل، ومع ذلك يجب ألا تكون كذلك لا بالنسبة لي ولا بالنسبة لأحد.

هل تعتقد بأنَّ في بلد الإمبراطوريَّة التي يتردد إليها الناس بكثرة مثل يهودا la Judée[1] كانت تجري أشياء غريبة، وذلك خلال ثلاث أو أربع سنوات متتالية، دون أن نسمع عنها شيئاً؟

لدينا حاكم وحامية في القدس؛ بلدنا مليئة بالرومان والتجارة مستمرة من روما إلى يافا، ولم نعرف أنَّ رئيسكم قد جاء إلى العالم.

إنَّ مواطنيه لديهم الملكة برؤية أو عدم رؤية المعجزات، حسب ما يعجبهم، لكن باقي الناس يرون ما يوجد أمام عيونهم بشكل عادي، ولا يرون إلا ذلك.

تحدثني أنَّ جنودنا يشهدون على الأعاجيب التي حصلت عند موته وبعثه وزلزلة الأرض، وعن الظلمات العميقة التي حجبت ضوء الشمس لثلاث ساعات وغير ذلك، لكن حين تصورهم لي وهم يتملكهم الخوف، مذهولين، وقانطين، ومشتتين أمام مشهد لمهارة واضحة

---

(1) يهودا هو الاسم العبريّ للمنطقة الجبليَّة جنوب فلسطين.

تنزل من السماء، وترفع الحجر الذي يسد قبره، وعندما تؤكدون أنَّ هؤلاء الجنود نفسهم ينكرون من أجل مصلحة رخيصة الأعاجيب التي كانت قد صعقتهم بشدة لدرجة الرعب، فأنتم تنسون أنَّهم كانوا رجالاً أو على الأقلّ تقومون بتحويلهم الى Iduméen[1]، كما لو أنَّ هواء بلدكم يبهر العيون ويقلب عقول الغرباء، لو أنَّ رئيسكم قد نفذ جزءاً يسيراً ممَّا تنسبون إليه لعلمت الأرض بكلّ أرجائها بذلك؛ هذا الرجل القدسي كان ليصبح موضوع أحاديثنا وموضع تقدير وإعجاب إلا أنَّه مازال مجهولاً؛ هذا الإقليم بكامله باستثناء عدد قليل من سكانه يرونه دجالاً.

أدرك على الأقل يا مارك أنَّه كان يلزم معجزة أكبر من كلّ تلك المعجزات لإيقاف حياة بتلك الروعة والإعجاز كتلك التي كانت لرئيسكم، اعترف بضلالك ودع تلك الأوهام؛ لأنَّه في النهاية يدين لخيالكم فقط بذلك الإعجاز

(1) سكان منطقة ادوم، وهي مملكة قديمة تقع شرق نهر الأردن على حدود يهودا.

الذي تحملون به تاريخه.

57- بقي مارك مشدوهاً من خطاب Menippe، استعاد بعد ذلك لهجة حماسيَّة، وقال: رئيسنا هو ابن الرب القادر الجبار، هو المسيح مخلصنا وملكنا، نعلم أنَّه مات ثم بعث من جديد، سعداء من رأوه ومن صدقوه، ولكن الأكثر سعادة من آمنوا به دون أن يروه.

روما كفي عن شكوكك، بابل العظيمة غطي نفسك بالرماد والأكياس، اطلبي التوبة، أسرعي فإنَّ الوقت قصير، وسقوطك قريب، وإمبراطوريتك توشك أن تزول، سيتغير العالم، وسيظهر ابن الإنسان ويحاكم الأحياء والأموات؛ إنَّه قادم، ها هو على الباب، بعض الذين يعيشون الآن سيرون إنجاز كلّ تلك الأشياء.

58- Ménippe الذي لم يرق له هذا الجواب، استأذن بالانصراف، وخرج من درب الأشواك تاركاً مارك المتحمس يلقي خطبته قدر ما شاء ويعمل على إعمار دربه بما استطاع من ناس.

59- حسناً يا أرسطو، ما رأيك بهذا النقاش؟

ستجيبني: أقرّ بأنَّ هؤلاء Iduméens حمقى، لكن من غير الممكن أنَّ أمة بكاملها لم تنجب رجلاً عاقلاً؛ إنَّ Thebains شعوب اليونان الأكثر غباوة قد أنتجت -Ep aminondas, Pélopidas, un Pindare. كنت أرغب حقاً أن أسمع Menippe يحاور المؤرخ جوزيف أو الفيلسوف فيلون من أن يكون ذلك مع الرسول جون أو المبشر مارك، من السهل على جماعة الحمقى أن يصدقوا ما لا يمكن لعدد قليل من العقلاء قبوله، والانصياع الغبي للبعض لم يضعف أبداً من الحجة البينة للبعض الآخر.

- إذاً أجبني، ما رأي فيلون بحاكم درب الأشواك؟....

لا شيء.

وما رأي جوزيف بذلك؟ ....

لا شيء.

وكيف تريد أن يتحدث Ménippe عن حياة وأفعال

هذا الرجل مع أناس مثقفين جداً؟

في الحقيقة إنَّهم لم ينسوا لا Galiléen Judas ولا Jonathas إلا أنَّهم تقاتلوا بسبب ابن ملكك، هل اختلط عليهم الأمر، ولم يميزوا في ظل الكم الكبير من المخادعين في Judé والذين لم يفعلوا سوى الظهور ثم الاختفاء؟

60- شعر سكان درب الأشواك بالصمت المذل للمؤرخين المعاصرين لضابطهم، شعروا أكثر بالذل الذي كان يعتري السكان القدماء لدرب شجر الكستناء إزاء جماعتهم.

ماذا عساهم يتخيلون؟

زوال الأثر من خلال تدمير السبب، لكن كيف؟ تقول لي أنا بالكاد أسمعك، هل استطاعوا جعل جوزيف يتكلم بعد موته بسنوات؟

لقد التقيت به، لقد أقحموا في حكايته مدحاً لضابطهم،

فلتعجب لعدم حذاقتهم، فهم لم يضيفوا ما يمكن تصديقه في القطعة التي ألفوها، ولم يعرفوا المكان المناسب للإضافة، كل ذلك كشف الحقيقة، ولقد ذكروا أمام كلّ من جوزيف ومؤرخ يهوديّ وأسقف ورجل متمسك بعقيدته خطاب أحد المرشدين، وفي أيّ مكان أضافوه؟

في مكان يدمر المعنى، إلا أنَّ المخادعين لم يعرفوا مصلحتهم، ومن أراد الكثير لن يحصل على شيء؛ هذا ما قاله من نقل لي الحديث الذي دار بين Ménippe ومارك، يجب أن نضيف قصة مذبحة أطفال بيت لحم إلى موضع ما ذكر من عنف وقسوة هيرودس الموصوفة بدقة من قبل مؤرخ يهوديّ لم ينطق بكلمة عنها.

61- عد معي إلى درب الأشواك.

62- من بين هؤلاء الذين يتسكعون هناك يوجد من يمسك بعصابته بكلتا يديه، كمن يقاوم الهروب، سوف تتعرف إلى تلك الرؤوس المصنوعة من أجل ذلك، فلقد لاحظنا في كلّ زمان أنّ العصابة تضبط بشكل أفضل كلّما

كانت الجبهة ضيقة ومصنوعة بشكل سيئ، ولكن ماذا يحصل بشأن مقاومة العصابة؟

أحد أمرين: إمَّا أن تتعب الذراعان وتنفلت العصابة وإمَّا أن يثابر على الإمساك بها وعلى المدى الطويل يتغلب على التعب؛ هؤلاء الذين تعبوا من التمسك بالعصابة يجدون أنفسهم فجأة كمن ولد أعمى؛ كل موجودات الطبيعة من حوله ستبدو له بمظهر مختلف عن كلّ تلك الأفكار التي كانت تصله منها؛ هؤلاء المستنيرون يمتعهم أن يرتاحوا تحت ظلال أشجار الكستناء واستنشاق الهواء النقي الذي يسيطر على المكان! إنَّهم لا يرون كيف تندمل جروحهم القاسية يوماً بعد يوم، تلك الجروح التي صنعوها لأنفسهم! إنَّهم يئنون بلطف على مصير البؤساء الذين تركوهم في درب الأشواك، وهم مع ذلك لا يجرؤون أن يمدوا لهم يد العون، وباعتبار أنَّهم لم يعد لديهم القدرة على المتابعة، فهم يخشون أن يقتادوا بملء إرادتهم أو بجهود المرشدين إلى أدغال أكثر كثافة، لم يحصل قط أن يتركنا هؤلاء المنشقين، يشيخون تحت ظلالنا، ولكن عند

مجيء الموعد العام نجد بينهم أعداداً كبيرة من المرشدين، وبما أنَّهم أغبياء أحياناً، فالمرشدون يقومون في لحظة خمول بضبط عصاباتهم، وبتحسين مظهر أثوابهم.

من بيننا من هم مقتنعون بذلك؛ لأنَّهم يظنون أنَّه من غير اللائق الظهور أمام الأمير من دون عصابة، ومن دون أن يكون نظيفاً ومرتباً؛ هذا ما يسمى عند الأشخاص اللبقين إنهاء الرحلة بشكل أنيق، فعصرنا يحب اللباقة.

63- مررت من درب الأشواك إلى درب الأزهار حيث مكثت قليلاً، ومنه إلى ظل شجرة كستناء ولم أستطع أن أتمتع بهذا الظل حتى الأجل الأخير.

بإمكاني أن أنهي طريقي على غير هدى كأيّ شخص آخر، ولكنّي أعدّ أنَّه من المؤكد أنَّ أميرنا جيد بسلطانه المطلق، وأنَّه سينظر إلى ثوبي أكثر ممَّا ينظر إلى عصابتي، يعرف أنَّنا ضعفاء أكثر من كوننا أشراراً، ومن هنا تنطلق حكمته في صياغة القوانين والتي إن ابتعدنا عنها سنعاقب.

إن كان ذلك صحيحاً، كما سمعتهم يبرهنون ذلك في

درب الأشواك، أقول أنَّ درجةَ الفضيلة التي نتمتع بها هي المقياس الصحيح لسعادتنا الحالية، هذا الملك بإمكانه أن يبيدنا جميعاً دون أن يظلم أحداً منا، أعترف أنَّ هذا الرأي ليس رأيي.

أعتقدُ أنَّ أميرنا الذي حكمته لا تقل عن جوده لا يقوم بشيء إن لم يكن له حسنة ما، انطلاقاً من ذلك ما الفائدة التي يجنيها من معاقبة جندي سيئ؟

هل هي رضاه الذاتيّ؟

يصعبُ عليَّ تصديق ذلك، إنِّي لأشتمه بوقاحة، بعدّه أكثر شراً مني، والشتيمة الصادرة عن الأخيار هي بمثابة شعور بالانتقام لا يتوافق مع فضيلتهم وإليها أميرنا لا يعير أيّ اهتمام، لا يمكننا القول أنَّه يعاقب من أجل أن تكونَ العقوبة عبرة لمن يعتبر؛ لأنَّه لن يبقى أحد يمكن للتعذيب أن يخيفه، إن كان حاكمنا يفرض عقوبات فلأنَّه يأمل أن يخيف كلّ من يحاول تقليد المذنبين.

64- لكن قبل الخروج من درب الأشواك عليك أن

تعلم أنَّ كلَّ من اتبع هذا الدرب لديهم رؤية غريبة، وهي أنَّ ساحراً ماكراً عجوزاً بقدم العالم العدو اللدود للأمير وأتباعه يلاحقهم ويطوف حولهم ويسعى إلى إفسادهم ويوسوس في آذانهم للتخلي عن عصاهم وتلويث ثوبهم ونزع عصابتهم والذهاب إلى درب الأزهار أو إلى درب شجر الكستناء، حين يشعرون أنَّهم سيتبعون آراءه يلجؤون إلى حركة رمزيَّة بيدهم اليمنى تجعل الساحر يهرب وخصوصاً إن بللوا أطراف الأصابع بماء قام المرشدون بتحضيره.

65- حكاية الساحر كتبت في آلاف الكتب التي تسابقت في إثبات أنَّ أميرنا ليس إلا أخرق بالمقارنة مع الساحر الذي عمل مقالب كثيرة، وهو أكثر براعة من منافسه في انتزاع أتباعه منه، لكن خوفاً من التعرض للوم الذي تعرض له Milton، وإن يصبح هذا الساحر الملعون بطلاً لكتابي، فلن يفوتهم أن يؤكدوا أنَّه هو من ألف هذا الكتاب، وسأكتفي بالقول إنَّنا نقدمه بصورة قبيحة كتلك التي أعطيناها للساحر Freston في كتاب -Cervant

es ، ونعدّ أنَّ من أصغوا إليه في درب الأشواك سيتركون على أبواب الحامية ليتقاسموا معه في كلِّ العصور القادمة، وفي لجّة النار ذاك المصير الفظيع الذي حوكم به، وحين يكون ذلك لن نرى الكثير من الشرفاء مجتمعين مع الكثير من الماكرين في قاعة واحدة قبيحة.

دربُ شجر الكستناء

1- يشكلُ دربُ شجر الكستناء إقامة هادئة تشبه إلى حد ما الأكاديميَّة القديمة، تفرشه الغابات الكثيفة والخلوات المظلمة حيث يسود الصمت والسلام، والشعب الذي يسكنه هو شعب جدي ورصين بطبيعته، من دون أن يكون صموتاً أو متشدداً، يأتي بالأدلة والبراهين فهو يحبُّ النقاش وحتى الجدال، ولكن دون حده وبعناد من خلاله يطلقون تصورات لدى الجوار، لا يشوه تعدد الآراء على الإطلاق الصداقة ولا يخفف من ممارسة الفضيلة، ويواجه خصومه من دون حقد. نشاهد على رمل الطريق رسومات لدوائر ومثلثات وأشكال

رياضيَّة مختلفة، وننشئ فيه أنظمة مع قليل من الشعر.

أعتقدُ أنَّ في درب الأزهار بين الفطر والعنب أنشئت رسالة A Uranie[1].

2- غالبيَّة الجنود الذين يسلكون هذا الطريق هم راجلون، يتبعونه سراً، ولولا مضايقات المرشدين في درب الأشواك الذين ينظرون لهم ويعاملونهم على أنَّهم أخطر الأعداء لقاموا برحلتهم بهدوء وسكينة.

لا بدَّ لي من أن أخبرك أنَّنا نرى فيه القليل من الناس ومن الممكن أن نرى أعداداً أقل إن لم نلتق إلا بمن يتوجب عليه مواصلة السير حتى النهاية، هذه الطريق ليست مريحة كدرب الأزهار، وهي لم تخلق للذين لا يستطيعون المشي من دون عصا.

3- مسألة كبيرة يجب تقريرها، وهي معرفة إن كان هذا الجزء من الجيش يمكن أن يشكل فيلقاً، فهنا لا توجد

(1) رسالةٌ شعريَّةٌ من تأليف فولتير.

معابد ولا مذابح ولا أضاح ولا مرشدون، لا نتبع راية مشتركة ولا نعرف أنظمة عامَّة، فالتعدديَّة نراها مقسمة ضمن قطاعات متعددة، جميعها تحرص على الاستقلال، نعيش كتلك الحكومات القديمة لكل إقليم نوابه ومجلسه العام وبسلطات متساوية، سوف تحلّ المسألة حين أكون قد رسمت لك صفات هؤلاء المحاربين.

4- تتألفُ السرية الأولى التي يعود أصلها إلى ما قبل العصور القديمة من أناس يقولون لك بوضوح أنَّه لا يوجد لا درب ولا أشجار ولا مسافرون، وأنَّ ما نراه يمكن أن يكون شيئاً ما، وفي الوقت نفسه يمكن أن يكون لا شيء.

ما يميزهم في المعركة أنَّهم تخلصوا من عبء أن يغطوا أنفسهم، فلا يشغلهم سوى الهجوم، ليس لديهم خوذة ولا درع ولا ترس إنَّما سيف قصير ذو حدين يستعملونه ببراعة، يهاجمون الجميع حتى أقرب الأصدقاء، وحين يصيبونك بجروح عميقة أو يصيبون أنفسهم بجروح

يؤكدون بدم بارد أنَّ ذلك لم يكن سوى لعبة، وليس لديهم الرغبة بضربكم، فهم لا يملكون سيفاً وأنتم لا تملكون جسداً، ولكن المؤكد بالنسبة لهم ولكم هو التحقق من أنَّهم مسلحون، وإن كان هذا الشجار دليلاً على صداقتهم.

يحكى عن أول رئيس لهم أنَّه -وهو يتنزه- كان يمشي في كلّ الاتجاهات برأس مطأطئ حيناً وهو متراجع غالباً، وكان يصطدم بالمارة وبالأشجار ويسقط في الحفر، ويجيب من يعرض عليه المساعدة بإرشاده بأنَّه في حال جيدة، يؤيد على حدّ سواء الفكرة وضدها، يصنع رأياً ثم ينقضه، يداعبك بيد ويصفعك باليد الأخرى...

هذه الجماعة لم تمتلك راية قط، وحين تخيل منذ مائتي سنة واحد من أبطالها راية على شكل ميزان مطرز بالذهب والفضة والصوف والحرير عليه شعار يقول: ما ذا أعرف؟

تلك التخيلات المكتوبة بأعواد مكسورة لم تسمح

بتكوين مبشرين، هؤلاء الجنود يجيدون الكمائن والحيل.

5- كتيبة أخرى ليست قديمة، ولكنّها أقلّ عدداً تتشكل من المتمردين من الكتيبة السابقة، يعترفون بوجود الدرب والأشجار ولكن يدعون أنَّ أفكار الكتيبة والحامية مضحكة وأنَّ الأمير ليس إلا وهماً، وبأنَّ العصابة هي رداء الحمقى وبأنَّ الخوف من العقاب هو السبب الوحيد الذي من أجله نحافظ على الثوب نظيفاً، يتقدمون بشجاعة نحو نهاية الطريق، هناك يتوقعون أن يذوبَ الرمل من تحت أقدامهم ويبتلعهم، لا يتمسكون بشيء ولا شيء يتمسك بهم.

6- مقتنعون بوجود الحامية، ويؤمنون أنَّ الحكمة اللامتناهية للأمير لم تتركهم دون هداية، وأنَّ العقل هو هبة من عنده والتي تكفي لينظموا سيرهم وسيحسن أو يساء استقبالهم وفقاً لممارساتهم على الطريق وعند الوصول للموعد العام فلن يخرجوا منه أبداً، يخضعون لقوانين المجتمع، يزرعون الفضيلة ويمقتون الجريمة،

وينظرون للشغف بوصفه ضرورة للسعادة، ورغم طيب صفاتهم إلا أنَّ أهل درب الأشواك يمقتونهم، ستسأل لماذا؟

لأنَّهم لا يملكون عصابة، ويؤكدون أنَّ عينين بنظر جيد تكفي لمتابعة الطريق، وهم يطالبون بأن يتم إقناعهم بالحجة البينة أنَّ القانون العسكريّ هو من صنع الأمير؛ لأنَّهم لاحظوا فيه ملامح تتعارض مع الأفكار التي تتعلق بحكمته وجوده، إنَّ عدله كبير فلا يستنكر الفضول الذي لدينا، ما الذي نبحث عنه؟ أليس معرفة إرادته؟

لدينا رسالة منه وكتاب من صنعه، نقارن الواحد بالآخر لنجد أنَّ العامل الماهر هو كاتب رديء؛ إنَّ هذا التناقض أليس بالقوة الكافية ليثير فينا كلّ تلك الدهشة؟

7- كتيبة رابعة سوف تقول لك أنَّ هذا الدرب نُفِذَ على ظهر الحاكم؛ إنَّه لتخيل ينافي العقل كتخيل أطلس عند الشعراء القدماء؛ أطلس الذي يرفع السماء على

أكتافه ويقوم الخيال على تجميل هذا الخطأ، نحن هنا نستخف بالعقل لنوحي بأنَّ الأمير يشكل جزءاً من العالم المرئي وبأنَّه والكون لا يشكلون إلا واحداً، وبأنَّنا -نحن أنفسنا- جزء من جسده الكبير.

8- إلى جانب هؤلاء هناك من يسير دون قاعدة أو نظام؛ أبطال أكثر تفرداً، وهم يؤيدون فكرة أنَّ كلَّ واحد منهم فريد في هذا العالم، يقبلون بوجود كائن واحد، ولكن هذا الكائن المفكر هو هم أنفسهم، وباعتبار أنَّ ما يجري في داخلنا ليس إلا انطباعات، فهم ينكرون وجود أيّ شيء آخر سواهم وسوى تلك الانطباعات: إنَّهم في الوقت نفسه العاشق والمعشوق، الأب والابن؛ إنَّهم سرير من الزهور، ومن يطأ هذا السرير.

قابلتُ أحدهم منذ عهد قريب وأكد لي أنَّه Virgile فرجيل[1]، أجبته كم أنت سعيد لأنَّك مخلد بالمقدسة

(1) شاعر لاتينيّ عاصر الإمبراطوريَّة الرومانيَّة.

الانياذة Enéide[1].

- من أنا؟ لستُ أكثر سعادة منك في ذلك.

- أجبت: يا لهذه الفكرة! إن كنت الشاعر اللاتيني حقاً، فأنت موضع تقدير لتخيل هذه الأشياء العظيمة، يا للحماس! يا للانسجام والأسلوب والوصف والنظام!

- ماذا يمكنك أن تقول عن النظام؟

لا يوجد أدنى شك في العمل موضع النقاش؛ إنَّه نسج من أفكار لا تنصب على شيء، وإن كان علي أن أعجب بنفسي على إحدى عشرة سنة قضيتها في نظم عشرة آلاف بيت، فإنَّ ذلك لمقدرتي على إخضاع المواطنين من خلال تعليمات نفي وإبعاد، وعلى إعطاء ألقاب لي كالأب والمدافع عن الوطن بعد أن كنت الطاغية.

(1) ملحمة شعريَّة كتبها فرجيل في نهاية القرن الأول قبل الميلاد تصف الحياة الأسطوريَّة لأينياس الطروادي والذي أصبح أباً لكلّ الرومان.

أمام هذا الهراء فتحت عينيّ لأحاول أن أوافق هذه الأفكار المتباينة، لاحظ شاعري أنَّ خطابه أربكني فأضاف: أنت بالكاد تسمعني، أنا في الوقت نفسه فرجيل وأوغست (Auguste)، وأوغست و سينا (Cinna)، لكن هذا ليس كلّ شيء، أنا هو اليوم الذي أريد أن أكون، سوف أبرهن لك أنّني ربما أكون أنت، إمَّا أن أرتفع حتى الغيوم وإمَّا أنزل إلى الهاوية، لن أخرج من ذاتي وذلك ليس إلا ما أدركه من أفكار خاصة بي، قال لي ذلك بلهجة جازمة عندما قطع حديثنا جماعة تتحدث بصخب في الطريق.

9- كانوا عبارة عن مجموعة من الشباب الطائشين الذين بعد أن مشوا طويلاً في درب الأزهار جاؤوا، وهم يدورون في دربنا، كانوا مضطربين تماماً، وقد حسبناهم سكارى، وكانوا ينادون بأنَّه لا يوجد أمير ولا حامية، وأنَّه في نهاية الدرب سيقضى عليهم جميعاً، ولكن من بين كلّ تلك التخيلات لا يوجد دليل واضح ولا تفكير

منطقيّ، كمثل هؤلاء الذين يأتون في الليل ويغنون في الشوارع ليجعلوا الناس تؤمن وليقنعوا أنفسهم أنّهم غير خائفين البتة.

إن عادوا من هذا الصخب، فذلك لكي يسمعوا حديث الآخرين ويلتقطوا منه بعض الأجزاء، ويكرروها بإضافة بعض القصص السيئة إليها.

10- يمقت حكماؤنا هؤلاء المتبجحين، فهم يستحقون ذلك: يسيرون دون توقف، يعبرون من درب إلى آخر، ينتقلون إلى درب الأشواك وحين يتملكهم الألم يسارعون إلى درب الأزهار، ويعيدهم النبيذ الجديد إلينا، لكن هذا لا يدوم طويلاً، سوف يعودون سريعاً ليتبرؤوا عند أقدام المرشدين من كلّ ما أعلنوه بيننا، ومع ذلك فهم مستعدون للإفلات من بين أيديهم إن سبب لهم علاجهم أيّة اضطرابات.

11- بينما كنت أتفحص هؤلاء الشجعان المزيفين، اختفى مدعي النبوءة، بدأت أنظر لآخرين كانوا

يسخرون من جميع المسافرين، فهم لا يمتلكون أيّة مشاعر ولا يفكرون بأنَّه من الممكن امتلاك مشاعر من النوع المتعقل، هم لا يعرفون من أين جاؤوا ولماذا جاؤوا وأين يذهبون ولا يعنيهم أن يعرفوا، وشعارهم: كلّ شيء تافه لا معنى له.

12- من بين هذه الجماعات، هناك من يأتي من وقت لآخر ليشن حروباً صغيرة ويجلبون معهم إن استطاعوا بعض المنشقين أو السجناء، درب الأشواك هو محل غاراتهم، يتسللون عبر موكب أو غابة أو ضباب أو عن طريق أيّ حيلة تدعم سر تقدمهم، يقبضون على العميان ممن يصادفونهم ويبعدون المرشدين وينشرون بيانات ضد الأمير وتهكمات ضد نائبه، ينزعون العصي ويقتلعون العصابات ثم ينسحبون.

قد يضحكك منظر هؤلاء العميان من دون عصاهم لا يعرفون أين يضعون أقدامهم ولا أيّ طريق يتبعون، يمشون على غير هدى ويضلون الطريق يشعرون باليأس

ويسألون عن الطريق، خطواتهم غير الواثقة تحرفهم في كلّ لحظة عن طريقهم الذي اعتادوا السير فيه.

13- حين يُقبض على مثيري الفوضى يعدّهم مجلس الحرب قطاع طرق؛ إنَّه سلوك مختلف تماماً عمَّا نمارسه عندنا.

تحت أشجار الكستناء نستمع لرؤساء درب الأشواك، نتوقع ضرباتهم، فندافع عن أنفسنا، نرهبهم، ونربكهم، ويمكن أن ننير عقولهم إن استطعنا أو على الأقلّ نشفق عليهم بسبب ما يعانون من عمى.

ما يحلّ قضايانا هو الهدوء والسلام، أمَّا قضاياهم فتحلّ من خلال الرعب والخوف، يعظون بالحبّ ويتنفسون الدم، خطاباتهم توحي بالإنسانيَّة، ولكن قلوبهم قاسية، وهم دون أدنى شك يصفون حاكمنا بالطاغية المتوحش حتى يشرعوا أهواءهم.

14- كنت شاهداً منذ فترة على حديث دار بين أحد

سكان درب الأشواك وواحد من أصدقائنا. الأوَّل الذي يمشي معصب العينين دوماً، اقترب من بستان، وكان الشخص الآخر يحلم هناك، لم يفصل الواحد عن الآخر إلا سور من الشجيرات يمنع انضمام أحدهم للآخر، لكن دون أن يمنع أن يسمع الواحد الآخر.

بعد تفكير واستدلال، صرخ صديقنا عالياً: ليس هناك من أمير إطلاقاً، ولا شيء يثبت وجوده بصورة مؤكدة، أمَّا الأعمى الذي وصله الخطاب مشوشاً فعدّه كسائر خطاباتهم، وسأله بصوت لاهث: يا أخي، هل ضللت طريقي، هل أنا في الطريق الصحيح، وهل مازال الطريق طويلاً أمامنا؟

15- للأسف! إنَّك بائس أحمق، تمزق نفسك وتدمي ذاتك عبثاً، مسكين مغفل، فقد خدعت بأفكار قوادك، تمشي عبثاً، ولن تبلغَ الإقامة الموعودة أبداً، إن تحررت من هذه الأسمال ستدرك حينها أن لا شيء أسوأ من نسيج الآراء الغريبة التي أوهموك بها، في النهاية

قل لي: لماذا تؤمن بوجود الأمير، هل إيمانك هو نتاج تأملات واستنارات أم نتاج الأفكار المسبقة وخطابات رؤسائك؟ إنَّك تتفق معهم بأنَّك لا ترى شيئاً، وتقرر بشجاعة في كلّ شيء.

ابدأ على الأقل بفحص وتفعيل المنطق لكي تتمكن من تبني حكماً أكثر رصانة.

يا لسعادتي إن استطعت سحبك من هذه المتاهة حيث تسير على غير هدى!

اقترب لأرفع عنك تلك العصابة.

- أجاب الأعمى محترساً ومتراجعاً ثلاث خطوات للوراء: لن أفعلَ شيئاً ممَّا يتعلق بالأمير، ماذا يمكن أن يقول الأمير، وماذا سأصبح إن وصلت من دون العصابة بعينين مفتوحتين؟

قد تنقذني من ضلالي، من جهتي فلن أيأس من اصطحابك معي، إن نجحت في ذلك سنترافق،

وبـما أنَّنـا تقاسـمنا خطـر الطريـق فإنَّنـا سنتقاسـم متعـة اللقـاء الموعـود.

16- أجاب ساكن درب شجر الكستناء: حسناً، منذ ثلاثين عاماً، وأنت تجوب هذا الدرب الملعون، يعتريك ألف قلق، هل أحرزت تقدما أكثر من أوَّل يوم؟ هل ترى الآن أفضل من قبل، المدخل والشقق ومقصورة الأمير، إنَّك لن تبلغَ شيئاً من ذلك، فلتقنع بأنَّك اتبعت هذا الدرب دون أساس متين، ولا يدفعك في ذلك الدرب إلا أفكار أسلافك وأصحابك وأقرانك، علماً أنَّ أحداً منهم لم يبلغك أيَّة أخبار عن ذلك البلد الجميل الذي تنوي السكن فيه ذات يوم.

من يترك دياره ليركب آلاف المخاطر ويقطع البحار الهائجة والعاصفة والصحارى القاحلة استناداً على كلام مخادع أو جاهل، ويبحث على غير هدى عن كنز في بلد لا يعرف عنه إلا ما وصله من تكهنات من مسافر آخر يساويه بجهله، ألا تعتقد أنَّه جدير بتلك البيوت

الصغيرة[1]؟هذا الرجل هو أنت؛ إنَّك تتبع طريقاً مجهولًا عبر الشجيرات الشائكة التي تمزقك، لا تمتلك أدنى فكرة عمَّا تبحث عنه وبدلاً من أن يضاء طريقك، تصنع لنفسك قانوناً بأن تسير، وأنت أعمى معصب العينين، لكن قل لي إن كان أميرك عاقلاً وحكيماً وطيباً، ما هي إرادته من أن تعيش في تلك الظلمات العميقة؟

إن مثل أميرك ذات يوم أمامك، فكيف ستتعرف عليه في ظلمتك التي تصنعها لنفسك، وما هو الشعور الذي سيحرضه ثباتك المتهدم لدى الأمير، الاحتقار أم الشفقة، وإن لم يكن موجوداً ما الفائدة من كلّ تلك الآلام التي عرضت نفسك لها، وإن استطعنا الشعور بعد الموت، فستقضي حياتك نادماً لأنَّك جهدت في دمارك الذاتيّ في فضاء صغير منح لك لتستمتع بوجودك، ولأنَّك تخيلت أنَّ حاكمك قاسٍ ليتمتع بدمائكم وصراخكم ورعبكم.

17- أجاب الأعمى بشدة: يا للشناعة! هذا ليس

---

(1) هو اسم أعطي لملجأ للمجانين تم إنشاؤه عام 1557 في باريس.

إلا كلامك أيّها الفاسق، كيف تجرؤ على الشك أو حتى إنكار وجود الأمير؟

كل ما يجري داخلك وخارجك لا يقنعك؟ إنَّ العالم يعلن وجوده أمام عينيك والمنطق أمام عقلك. إنِّي أبحث حقّاً عن كنز لم أره أبداً، لكن أين أنت ذاهب؟ إلى العدم؟ يا لها من نهاية جميلة ليس لديك أي فرصة أمل، نصيبك الرعب وهو الذي سيقودك إلى اليأس، لا يهم كم تألمت وخدشت طيلة خمسين سنة كنت أنت تعيش راحة لا توصف، حين تقف أمام الأمير دون عصابة ودون عصا، فأنت محكوم بعذابات لا نهائيَّة أكثر حدة من تلك العذابات العابرة التي أخضعت نفسي لها، أجازف بالقليل لأربح الكثير، وأنت لا تجازف بشيء مقابل خسارة كلّ شيء.

18- أجابَ الصديقُ بكلّ روية: إنَّك تفترض وجود الأمير وبلاطه، وضرورة ارتداء زي خاص وأهمية الحفاظ على الثوب نظيفاً والاحتفاظ بالعصابة، فلتتألم

لنكراني كلّ تلك الأشياء، إن كانت خاطئة فإنَّ النتائج التي ترجوها منها ستسقط من تلقاء نفسها، وإذا كانت المادة أبديَّة، والحركة تهيؤها وتعطيها كلّ تلك الأشكال التي نراها تحافظ عليها، فما حاجتي لأميركم؟

لا يوجد موعد للقاء، وما تسمونه روحاً ليس إلا أثر المنظومة، طالما الأعضاء تعمل فنحن نفكر، وحين تضعف فإنَّنا سوف نهذي، وما هو مصير الروح بعد الموت، ومن قال لك حين تغادر الروح الجسد أنَّها تستطيع أن تفكر وتتخيل وتحس؟ لكن لننتقل الآن إلى قواعدكم المبنية على أعراف اعتباطيَّة؛ إنَّها نتاج عمل المرشدين الأوائل، وليست نتاج العقل، وبما أنَّه -أي العقل- واحد لجميع البشر فهو يدلُّ في كلّ زمن، وفي كلّ مكان إلى ذات الطريق، يصف نفس الواجبات ويمنع نفس الأعمال؛ لذلك هل كان العقل ليعالج ذلك لصالح بعض الحقائق التجريديَّة من تلك الأخلاقيَّة؟

جميعها في توافق دون استثناء، إذاً لتبدأ بتبديد هذه

الغيوم إن كنت تريدني أن أرى جيداً.

19- بكل تأكيد، ولكن أرغب أن ألجأ من وقت لآخر إلى سلطة كتابنا، هل تعرفه؟

إنَّه عمل إلهيّ، لن يتقدم من لم يستند على وقائع تفوق قوى الطبيعة، وبالنتيجة فهو يستند على براهين أكثر إقناعاً، وبشكل لا يقارن مع ما يمكن أن يمنحه العقل.

20- قال الفيلسوف: دع عنك كتابك هذا! لنتواجه بأسلحة متكافئة، أمثل أمامك من دون سلاح وبكلّ طيب خاطر، أمَّا أنت فإنَّك تتسلح بعدة قتال كافية لسحق الإنسان بدلاً من الدفاع عنه، هل فكرت في ذلك، من أين تعلم أنَّ كتابك مقدّس، هل تؤمنون حقا به؟ واحد من قوادكم تحت حجة مهاجمة Horace وVirgile ... هل تسمعني؟ لن أتكلم أكثر.

إنَّني أحتقر مرشديكم فهم يجعلونني أستقوي بسلطتهم ضدكم، وما الفائدة التي يمكن أن تجنوها

من القصص العجيبة التي يمتلئ بها كتابكم؟ ماذا! أنتم تريدون إخضاع الآخرين ليؤمنوا بأحداث خارقة استناداً إلى كتّاب ماتوا منذ أكثر من ألفي عام، في حين أنَّ كتَّابكم المعاصرين يفرضون عليكم أحداثاً تجري بالقرب منكم، بإمكانكم التحقق منها، حتى أنتم في سرد مكرر لحدث معروف بالنسبة إليكم ومنه تجنون فائدة، تضيفون وتقتطعون وتبدلون دون توقف بحيث نطعن بخطاباتكم الواحد تلو الآخر، وبالكاد نستطيع أن نقرر بشأن أحكامكم المتناقضة وتتفاخرون بقراءة العصور الماضية المظلمة وتواءموا بين التقارير غير المؤكدة للمرشدين الأوائل! في الحقيقة ذلك يعني تقديركم لهم يفوق تقديركم لذاتكم.

21- ما هذا الوحش الذي تذكره الآن؟ استأنف الأعمى؛ إنَّه المسبب الرئيس المسؤول عن البقع التي يمكن أن تراها على أثوابنا، في ذاتك يقبع السبب لاعتدادك الذي يمنعك من كبح لجام عقلك.

آه! ليتك تستطيع ترويضه كما نفعل نحن!

أترى هذا المسح، هذا السيليس cilice؟ ألا تمتلكك الرغبة بتجريبه؟

إنَّها قواعد لضبط النفس وهي الخادم الأكبر للأمير: لأطبق عليك بعضاً منها لسلام روحك، ليتك تعرف طعم طراوة هذا التنسك!

كيف تستطيع من خلال الحياة المطهرة من الآثام أن تنقلك إلى الاستنارة ومنها إلى التوحد مع الخالق، كم أنا أحمق! أحدثك لغة الأبطال ولكن لأعاقب نفسي لأنِّي دنستها وتحصل على هبة الذكاء...

22- في هذه اللحظة بدأت الأمور تزداد حدة، أيّها المسكين! صرخ خصمه، ما هذا الهذيان الذي يسيطر عليك؟

لو كنت أقلّ عطفاً لسخرت من تلك الشخصيَّة التي تجسدها؛ إنِّي لا أرى فيك سوى شخصاً يمزق

جسده ليعيد النظر إلى تلميذ Gendron، أو شخصيَّة Sancho التي تجلد ذاتها لتحرر Dulcinée من أوهامه، ولكنَّك إنسان وأنا كذلك.

توقف أيّها الصديق، فإنَّ كرامتك التي اعتقدت أنَّك أخضعتها من خلال تلك الممارسات البربريَّة تحصل على ما تريد وترضخ تحت تأثير قواعدك، هل تحترم نائب الأمير وأنت تشوه صوره؟ وإن تجرأت على فعل ذلك، ألن يقبضوا عليك أتباع مجلس الحرب مباشرةً، لتلقى في كوخ ما تبقى لك من أيام؟

إنِّي أفكر بمنطق مبادئك؛ إنَّ ما نظهر من تبجيل للأمراء مبني على تكبرهم أو ربَّما حالهم البائس الذي يتوجب نزعهم منه، أمَّا أميرك فهو سعيد بسلطانه المطلق، فإن اكتفى بذاته كما تقول لمَ نذورك وصلواتك وحركاتك المتكلفة؟ إمَّا يعرف مسبقاً رغباتك وإمَّا يجهلها، إن كان على علم بها فإمَّا أن يمنحك إيَّاها وإمَّا يمنعها عنك، لن تنتزع همومك منه عطاياه، ولن يعجل

عويلك بالأمر.

23- أضاف الأعمى: آه! بدأت أعرف من تكون، إنَّ نظامك يسعى لتقويض مليون صرح رائع، وكسر أبواب الأقفاص، وتحويل المرشدين إلى فلاحين أو جنود، وإفقار روما، من هنا أستنتج بأنَّه مدمر لكلّ مجتمع.

24- أضاف صديقنا: استنتاجك خاطئ، إنَّه يدمر تلك الانتهاكات فقط، شهدنا مجتمعات عظيمة تنهض من دون الحاجة لتلك المعدات، وفي الوقت الحاضر يوجد مجتمعات ناجحة أيضاً.

إن وضعنا على التوازي هؤلاء الناس مع من يتفاخرون بمعرفة أميرك، ومن خلال السبر الجيد لزيف وتناقض أفكار هؤلاء الناس نستنتج بكل تأكيد عدم وجوده، كيف بإمكانك معرفة الأمير إن لم يقدم لك سوى دلائل مبهمة على وجوده؟

25- أضاف الأعمى: لكن، بماذا أفكر إن كان قد ترك لي حصة من ميراثه؟

أنت تتفق معي بأنِّي أخذت من الروح القدس ملكة التفكير والعقل، أنا أفكر إذاً أنا موجود؛ أنا لم أعط نفسي هذا الكيان، لقد جاءني من آخر وهذا الآخر هو الأمير.

26- قالت شجرة الكستناء ضاحكة: نرى جيداً عند هذا الحد أنَّ أباك قد حرمك من الميراث؛ هذا العقل الذي تتفاخر به كثيراً، بماذا تستخدمه؟

بين يديك آلة لا فائدة منها، فهي تحت وصاية المرشدين لا تصلح إلا لجعلك يائساً، فهي ترشدك من خلال خطاباتهم أن تعدّ الملك كوحي تتفاخر به من خلال احتفاظك بالنعم والحسنات عبر مثابرتك على التغلب على هذه الأشواك واجتياز هذه الصخور والمستنقعات، ما أدراك إن لم يقرر إلا في نهاية الطريق، عندها سينفد صبرك وترفع عصابتك قليلاً وتلوث ثوبك؟ وإن قرر فإنَّك ستستسلم وها أنت ضائع.

27- لا، إنَّ المكافآت الرائعة التي تنتظرني ستدعمني وتقف إلى جانبي.

- ولكن مم تتألف هذه المكافآت الرائعة؟

- من ماذا؟ أن أرى الأمير، وأن أراه دون توقف وأن تثيرني الدهشة في كلّ مرة أراه فيها.

- وكيف ذلك؟ بواسطة فانوس مدمج في الغدة الصنوبريّة يكشف لنا كلّ شيء بوضوح تام.

28- ولكن حتى الآن يبدو لي أنَّ مصباحك هذا يكسوه السواد والدخان، وكلّ ما ينتج عن كلامك أنَّك لا تخدم أميرك إلا خوفاً منه وتعلقك به مبني فقط على المصلحة؛ إنَّه عشق ذليل لا يناسب إلا العبيد، وهذا الحبّ أصبح المحرك الوحيد لخطواتك، اذهب سوف تربح عند الانضمام لحزبنا في مأمن من الخوف، ومتحرر من أيّ مصلحة، حينها ستعيش -على الأقلّ- بهدوء وطمأنينة.

29- أجاب الأعمى: عميل الشيطان، أرى جيداً أنَّ الحجج البينة ستنقلب عليك، انتظر وسألجأ إلى أسلحة أكثر فعالية.

30- سرعان ما بدأ ينادي على الكافر والهارب، ورأيت -من كلّ صوب- مرشدين غاضبين، يحملون حطباً تحت الذراع وشعلة في اليد، يتقدم صديقنا في الدرب برصانة ليمر بممرات ملتوية، في حين أنَّ الأعمى، بعد أن استعاد عصاه وواصل طريقه، حكى مغامرته لأصدقائه الذين سارعوا بتهنئته، بعد ثنائه قرر أن يطبع براهينه وحججه تحت عنوان «نظريَّة الفيزياء وأخلاق الوجود وخواص النور، كتابة الأعمى، ترجمة وتعليق عضو مجلس رعية Quinze-Vingts.

ندعو لقراءته كلّ من يتخيل نفسه منذ أربعين عاماً وأكثر يرى بوضوح دون أن يعرفَ السبب، والأشخاص الذين لا يستطيعون الحصول عليه لن يزعجهم معرفة أنَّه لا يحتوي أكثر من المحادثة السابقة بعد أن تم إعادة

تنظيمها.

31- الضجة التي أثارتها هذه القصة سمعت حتى تخوم دربنا، حيث عملنا على توضيح الأمر ودعوة الجمعيَّة العموميَّة لمناقشة صلاحيَّة وصواب هذه البراهين التي قدمها الأعمى وAthéos (أتيوس هو اسم صديقنا).

كنتُ على مقربة من حقل المعركة، اعتراني بعضُ الاشمئزاز حين كان عليَّ أن أقدم دفاعاً عن قضيَّة مبنية على أساس غير سليم واعتقدت أنَّه يتوجب أن أضع تقريري لصالح الحقيقة.

كرر بطلنا ما كان قد اعترض عليه، وأنا أعدت كلام الأعمى بدقة، تقاسمنا الآراء باعتبار أنَّ ذلك اعتيادي بيننا، قال البعض إنَّنا لم نستخدم سوى حجج ضعيفة، وقال البعض الآخر أنَّ هذا الجدال قد ينتج عنه إيضاحات مفيدة لتلك القضيَّة، انتصر أصدقاء أتيوس وصمموا على الاستيلاء تدريجيَّاً على باقي الفرق،

أؤيد مع أصدقائي أنّهم يعلنون انتصارهم قبل الحدث وعليهم ألا يتفاخروا بسحق من كان يمتلك حججاً صلبة لمعارضتهم.

في صراع الآراء هذا اقترح واحد منا أن نشكل من كلّ فريق مجموعة من رجلين، ونرسل هذه المجموعة إلى مقدمة الدرب لتقرر بناء على مكتشفات لاحقة من سيكون رئيسها، وما هي الأعلام التي يجب اتباعها.

اخترنا للفرقة الأولى Zénoclès et Damis، وللثانية Athéos مع Xanthus وعن فرقتنا تم اختياري أنا وPhiloxème، وعن الفرقة الرابعة Oribaze وAlcméon، وعن الفرقة الخامسة Diphile وNérestor، اتخذنا شعاراً لنا الحقيقة ثم انطلقنا، أفسحت لنا هيئة الجيش المجال للتقدم، ونظمت خطواتها وفقاً لسيرنا.

32- كانت واحدة من تلك الليالي الجميلة التي لا يمكن لكاتب رواية إلا أن يصفها وصفاً يفي حقها.

لستُ سوى مؤرخاً، وسأقول ببساطة أنَّ القمر كان في ذروة السماء، والسماء صافية، والنجوم مشعة.

وضعتني الصدفة بالقرب من أتيوس، ومشينا معاً، كان الصمت يسود الطريق، بادرت بالحديث وقلت لجاري: هل ترى بريق هذه الأجرام السماويَّة، بعضها يسير بانتظام، وبعضها الآخر في ثبات مطلق، أترى التعاون المتبادل فيما بينها، ما الفائدة التي تقدمها لكوكبنا؟

دون هذه المشاعل أين سنكون، أيّ يد خيرة أضاءتها جميعها وحافظت على اشتعالها، هل يمكن أن ننكر ذلك وننسب هذا الأمر للصدفة، ألا يقودنا نظامها البديع ووجودها إلى اكتشاف خالقها؟

33- أجابني: ذلك لا يقود لشيء؛ إنَّك تنظر إلى نورها بعيون الحماس، وإنَّ خيالك ألّف من ذلك تصوراً جميلاً لتنسب فضل هذا التصور لا أعرف لأيّ كائن هذا الحدس أو التصور؛ إنَّه افتراض أو تخمين لقرويّ بسيط

يعتقد أنَّ المعماريّ العظيم Servandoni[1] قد رسم حدائق Armide أو أنَّه بنى قصر الشمس من أجله.

أمامنا آلة مجهولة بنينا عليها ملاحظات تثبت انتظام حركاتها بالنسبة للبعض، وفوضويتها بالنسبة للبعض الآخر، وبعض الجاهلين الذين يعرفون بالكاد بعضاً عن هذه الآلة يبنون تخمينات عن عملها في حين أنَّ ما تبقى من أمور يجهلونها تماماً، وحتى ينهون تصوراتهم يضعون على هذا العمل اسم خالقها.

- لكن لنقوم بهذه المقارنة: ساعة جدارية وساعة يد، ألا تكشف عن ذكاء الساعاتي الذي صممها، وهل تجرؤ أن تقول أنَّها من صنع الصدفة؟

34- إنَّك تقارن عملاً منجزاً، عرف صانعه وأصله، بعمل غير منجز، نجهل بداياته وحاضره ونهايته، وعن صانعه ليس لديك سوى تخمينات.

(1) مهندسٌ معماريٌّ ولد في إيطاليا عام 1695، ومات في باريس، 1766.

35- أجبت: لا يهم، متى بدأ ولا من صنعه، ألا أرى ما يكون، ألا يعلن بنيانه عن صانعه؟

36- أجاب أتيوس: لا، إنَّك لا ترى ما يكون، من قال لك إنَّ هذا النظام الذي يعجبك هنا غير موجود في أيّ مكان آخر، كيف لك أن تحكم من نقطة من هذا الفضاء على الفضاء اللامتناهي؟ لنملأ أرضاً واسعة بالتراب والأنقاض ونرميها كيفما اتفق، وبين هذه الأشياء تجد بعض الحشرات كالدود والنمل مساكن مريحة جداً لها، ما رأيك بهذه الحشرات، إن هي فكرت بطريقتك، وافتتنت بذكاء المزارع الذي جهز لها كلّ هذه المواد؟

37- قاطعنا Alcméon قائلاً: إنَّ صديقي Oribaze سيبرهن لكم أنَّ الجرم السماويّ المنير، والذي لا يتأخر عن الظهور هو عين الأمير، وإنَّ تلك النقاط المضيئة هي إمَّا ألماس التاج خاصته وإمَّا أزرار ثوبه التي هي هذا المساء بلون أزرق داكن، سوف تلهون

في جدل حول نظامه، ربَّما سوف يغير ذلك غداً، عينه الكبيرة سوف تملؤها السوائل، وثوبه اللامع اليوم سيتسخ، كيف ستتعرفون عليه؟

ابحثوا عنه في ذواتكم فأنتم جزء من كينونته، هو فيكم وأنتم فيه، مادته وحيدة، وشاسعة، وكونيَّة، والباقي ليس إلا أنماطاً عنها.

38- قال Philoxène: وفقاً لوجهة نظركم هذه، فإنَّ أميركم مركب غريب، يبكي ويضحك، ينام ويسهر، يمشي ويرتاح، حزين وسعيد، غير مبال ومتألم، تنتابه المشاعر والحالات الأكثر تناقضاً؛ إنَّه في نفس الموضوع شريف أحياناً ومحتال أحياناً أخرى، وحكيم ومجنون، ومعتدل وفاجر، ورقيق وقاس يجمع كلَّ الرذائل مع كلّ الفضائل، ويصعب عليَّ أن أفهم كيف بإمكانكم أن تجمعوا كلَّ تلك التناقضات.

انضم إلى Philoxène Damis و Nérestor ضد Almécon وتنابزوا بالكلام، تقدموا بحجج

أولا للتشكيك بوجهة نظر Alcméon ثم هاجموا Philoxène، ثم انتهوا بالحديث الذي دار بيني وبين Athéos وأجابونا بهيئة مفكر: سوف نرى ذلك.

39- بدأ الليلُ يترك مكانه للنهار، وبدأت الشمس بالظهور لنكتشف أمامنا نهراً واسعاً يبدو أنَّه يقطع الطريق بالطيات المختلفة التي يشكلها؛ مياهه صافية ولكنَّها عميقة وسريعة، ولا واحد منا يجرؤ على العبور، جلسنا بالقرب من ضفته على عشب مظلل بأشجار الصفصاف والحور، أمامنا سلسلة من الجبال شديدة الانحدار ومغطاة بأشجار التنوب.

قال لي أتيوس ساخراً: ألن تشكر أميرك لأنَّه خلق شيئين يغضبان الآن الناس الشرفاء: نهر لا يجرؤ أحد على اجتيازه دون خطر الغرق، ومن ورائه صخور لا يمكن عبورها دون أن نتعرض للكلل والجوع.

كيف لرجل عاقل أن يزرع حدائق لمتعته ومتعة أصدقائه ويجعل فيها نزهات خطيرة جداً، لقد قلتم إنَّ

الكون هو من صنع ملككم، بماذا يفيد هذا الزخم الكبير من الماء، ألا تكفي بعض الجداول للحفاظ على نضارة وخصوبة هذه المروج، وهذه الأكوام الهائلة من الصخور هل تفضلونها على سهل جميل؟

كلّ هذا لا يدين بوجوده لإرشادات العقل بقدر ما يدين لنزوات الجنون.

40- أجبتُ: ما رأيك بسياسة أحد لم يدخل إلى مجلس الأمير ولم يفهم غاياته أبداً، ويعترض على الضرائب وعلى سير الجيوش أو عدمها، وينسب للصدفة النجاح في معركة أو النجاح في مفاوضات أو في شحن بحريّ؟

إنّك تستنكر مكان وجود هذا النهر وهذه الجبال؛ لأنّها تزعجك في الوقت الحاليّ، ولكن هل أنت وحيد في هذا العالم، هل وازنت كلّ العلاقات لهذين العنصرين مع صالح النظام العام، هل يمكنك أن تعرف إن كانت هذه الكومة من الماء ضروريّة لإخصاب بيئات أخرى تسقيها أثناء مرورها، بماذا يمكن أن تنفع جداولك التي

يمكن لضربة شمس أن تجففها؟

تلك الصخور التي تزعج نظرك مغطاة بأعشاب وأشجار ذات فائدة معروفة، نستخلص منها الفلزات والمعادن، وعلى قممها توجد خزانات كبيرة تمتلئ بمياه الأمطار والثلوج والندى، ومن هناك تتوزع المياه لتشكل جداول وأنهار ونوافير؛ هذه هي غايات الأمير، ولقد جاء بك الحق إلى باب مجلسه ولقد سمعت ما يكفي لتقتنع بأنَّ يداً خالدة حفرت الخزانات وأنشأت القنوات.

41- وحين رأى Zénoclès أنَّ الخلاف يزداد حدة، أشار بيده أن نتوقف قائلاً: بالنسبة لك هي صخور ونهر، أليس كذلك؟

أنا أؤكد لك أنَّ ما تسميه نهراً هو بلورة صلبة نستطيع المشي عليها دون أدنى خطر، وما تعتقدونه صخوراً ليس إلا بخاراً كثيفاً يسهل اختراقه، ثم أضاف: انظروا، إنِّي أقول الحقيقة. ارتمى في النهر وغطس لستة أقدام، خشينا عليه جميعاً، ولحسن الحظ أنَّ Oribaze سباح ماهر،

سبح والتقطه من ثيابه، وأعاده لضفة النهر، تبع خوفنا عليه عدة ضحكات أثارها مشهد وجهه، أمَّا هو فنظر إلينا متسائلاً عمَّا جعلنا سعداء لهذا الحدّ.

42- في هذه الأثناء، وصل المغامرون بخطا سريعة، لقد أخبرونا أنَّه عند اتباعهم مجرى النهر وجدوا على مقربة منا جسراً شكلته الطبيعة؛ كان عبارة عن صخرة كبيرة من تحتها فتح الماء مجرى له.

عبرنا النهر ونزلنا ثلاثة أميال محاذين الجبال والنهر على يسارنا، كانت تجتاح Zénoclès الرغبة من حين لآخر، بالذهاب بحماس كبير نحو المرتفعات التي تحدنا من يميننا لاختراق ما أسماه الضباب.

43- وصلنا أخيراً إلى واد صغير باسم يقطع الجبال ويؤدي إلى سهل واسع تغطيه الأشجار المثمرة وبالأخص شجر التوت التي تعلو أوراقها دود الحرير، وكانت أسراب من النحل تطن في تجاويف بعض أشجار البلوط، كانت هذه الحشرات تعمل دون كلل،

وكنَّا نتأملها بانتباه عندما سنحت الفرصة ل -Philoxène ليسأل Athéos إن كان يرى أنَّ هذه الحيوانات المجتهدة هي عبارة عن كائنات آليَّة.

44- قال Athéos إنَّها ساحرات صغيرة؛ بعضها مغلف في حلقات يسروع، والبعض الآخر في جسم ذبابة، بذلك تحدث أحد أصدقائنا منذ بعض الوقت، قد تعاملوني بشكل أفضل، مما يحدث في درب الأشواك.

45- أجاب philoxène بتواضع: إنَّكم تنصفوني، لا أعرف أن أصبغ بألوان بشعة حديثاً بريئاً وخفيفاً، بعيداً عنَّا تقبع الروح المضطهدة عدوة النعم بقدر ما هي عدوة المنطق، لكن أن تحسبوا هذه الحشرات آلات فقط، إن من يعرف صنعها بهذه المهارة ...

- قاطعه Athéos: أعرف إلى أين تريد أن تصل إنَّه أميرك، إنَّه لاهتمام ظريف أن يوظف مهارته وبراعته عند أقدام يسروع وأجنحة ذبابة!

46- أجاب Philoxène بازدراء: ما يثير إعجاب الإنسان يمكن أن يكون محط اهتمام عند الخالق، في هذا الكون لم يخلق ولم يوضع شيء دون غاية وهدف.

- أجاب أتيوس: تتحدث دائما عن الغاية والهدف! لا يمكن التمسك بذلك.

- أضاف Damis: هؤلاء السادة هم أمناء سر للصانع العظيم، لكن حالهم كحال العلماء عندما يعلقون على ما يكتبون لجعلهم يقولون ما لم يفكروا به أبداً.

47- تابع Philoxène: ليس تماماً، إنَّه بمساعدة المجهر اكتشفنا وجود دماغ عند دودة الحرير، وقلب، وأمعاء، ورئتين، وعرفنا آليَّة عمل هذه الأعضاء، ودرسنا حركة السوائل التي تسير ضمنها ورصدنا عمل هذه الحشرات، لندع جانباً صنعة هذه النحلات، أعتقدُ أنَّ بنية قرونها وإبرتها تشكل لأيّ فكر عاقل عجائب لا يمكن أن نحسبها نتاج حدث طارئ للمادة.

- أكمل Oribaze: هؤلاء السادة لم يقرؤوا قط للبطريرك فيرجيل، وهو الذي ادّعى أنَّ النحل تلقى نصيباً من الأشعة الإلهيَّة وشكّل جزءاً من الروح القدس.

- أجبته: أنتم وشاعركم، ألا تعتقدون أنَّكم بذلك تؤلهون ليس الذباب فحسب، بل قطرات الماء، وكلّ حبات رمل البحر، وتلك ادعاءات سخيفة.

لنعد إلى ادعاءات Philoxène: إن كانت ملاحظاته الحكيمة حول الحشرات تخلص إلى وجود أميرنا، إلى ماذا ستخلص دراسة تشريح الجسم البشريّ والظواهر المختلفة للطبيعة؟

-لا شيء آخر سوى انتظام المادة، أجاب Athéos بثبات، بعد أن لحظ الحضور إرباكه أجابه لمواساته بأنَّه ربَّما لديه حق، لكن رجحت الكفة لصالحي.

48- إن كانت الغلبة ل Philoxène ، فهذا خطأ Athéos ، تابع Oribaze بحماس، ليس عليه سوى

القيام بخطوة إضافيَّة لترجح كفة النصر لصالحه.

لا نفهم من خطابPhiloxène إلا أنَّ المادة منظمة، ولكن إن استطعنا أن نبرهن أنَّ المادة ونظامها أبديان، كيف سيكون خطاب Philoxène؟

49- تابع Oribaze: لإعطاء الوجود يجب العمل، وحتى يكون العمل ممكناً يجب أن يكون هناك وجود.

50- لو لم يوجد سوى كائنات ماديَّة لما وجدت كائنات ذكية؛ لأنَّ الكائنات الذكية إمَّا هي التي أعطت الوجود وإمَّا تلقته من الكائنات الماديَّة، إن كانت قد أعطت الوجود لكان عملها قد سبق وجودها، وإن كانت قد تلقت الوجود من المادة لنتج عن ذلك آثار، ومن هنا أرى أنَّ هذه الكائنات يمكن إرجاعها إلى ما نسميه نوعيَّة الأنماط، وهذا لم يكن في حسبان philoxène .

51- إن لم يوجد سوى كائنات ذكية لما وجد كائنات

ماديَّة أبداً؛ لأنَّ كلَّ ملكات الفكر ترجع إلى الإرادة والتفكير؛ التفكير والإرادة يستطيعان التأثير على المخلوقات وعلى العدم أيضاً، يمكنني أن أفترض أنَّ ذلك خاطئ حتى يثبت Philoxène العكس.

52- برأيه أنَّ الكائن الذكي ليس نمطاً للكائن الماديّ، برأيي لا يوجد أيّ سبب يجعلنا نعتقد أنَّ الكائنَ الماديَّ هو أثر ناتج عن الكائن الذكي، وبهذا ينتج أنَّ الكائن الذكي، والكائن الماديّ أبديان وأنَّ هاتين المادتين تشكلان الكون، وأنَّ الكون هو الله.

53- تناول Philoxène الحديث بنبرة مذلة لا تناسب أحداً، وقال: أنتم تؤلهون الفراشات والحشرات والذباب وقطرات الماء وكلّ جزيئات المادة.

أجبته: أنا لا أؤله شيئاً، إن استمعت إليَّ قليلاً ترى أنّي على العكس أعمل على نفي التخمينات والكذب والآلهة من العالم.

54- وقع Philoxène في حيرة لأنَّه لم يكن يتوقع ذلك من عدو كان يستخف به، بينما كان Philoxène يحاول أن يخرج من غفلته ويستعد للرد.

انتشرت على جميع الوجوه فرحة خبيثة ولدت على ما يبدو من بعض أسرار الغيرة التي لا يمكن للأرواح الأكثر تعقلاً الدفاع عنها، لم ينزعج أحدٌ من رؤيته مرتبكاً، وهذا من قبل عدو كان قد عامله بقلة تهذيب، لن أخبرك عن جواب Philoxène، فهو بالكاد بدأ حتى اسودَّت السماء، وغطى الغيم الكثيف مشهد الطبيعة، ووجدنا أنفسنا في ليل مظلم استوجب أن ننهي هذا القتال ونعيد القرار لمن قام بتشكيلنا.

55- استعدنا طريق دربنا واستمعنا لحكاية هذه الرحلة ولأحاديثنا، نعمل حالياً على موازنة حججنا، وإن أطلقنا حكماً ما سأخبرك به.

56- اعلم فقط أنَّ Athéos وجد عند عودته زوجته مخطوفة وأولاده مذبوحين، وبيته مسروقاً،

اشتبهنا بذاك الأعمى الذي اختلف معه عند سور الأشجار، والذي تعلَّم أن يحتقر صوت الضمير والقوانين، في كل مرة استطاع أن يجتاز السور سراً تاركاً درب الأشواك، ليرتكب هذه الفوضى مستغلاً غياب Athéos وعدم وجود أيّ شاهد ليفلت بذلك من العقوبة.

أكثر ما يحزن في هذه القضيَّة بالنسبة لـ Athéos المسكين أنَّه لم يعد لديه الحريَّة في أن يشتكي؛ لأنَّ الأعمى في النهاية كان محقاً.

دربُ الأزهار

1- مع أنَّني لم أتنزه كثيراً في درب الأزهار، إلا أنّي أعرف ما يكفي لأعطيك فكرة عن حاله وعن عبقريَّة سكانه؛ إنَّه أشبه بحديقة واسعة من أن يشبه الدرب، نجد فيها كلّ ما يسحر الحواس؛ مشاتل تزخر بالأزهار يتبعها بساط من الإسفنج، ومروج فيها مئة جدول تحفظ خضرتها، فيها غابات مظلمة تتقاطع فيها آلاف الطرق، ومتاهات نجد فيها متعة أن نضل الطريق، وبساتين نتوارى فيها وأجمات كثيفة نحتمي فيها.

2- أقيم في درب الأزهار حجرات مخصصة لاستخدامات مختلفة، في بعضها نجد موائد مشغولة بعناية مع أنواع مختلفة من النبيذ والمشروب الفاخر، وفي بعضها الآخر نجد طاولات لعب وبطاقات وطاولات قمار، وكلّ ما يلزم لتهلك في التسلية.

3- هنا يجتمع الناسَ الذين يختارون أن يفكروا بفكر شارد، نادراً ما يقولون ما يفكرون، يثقلون أنفسهم بعبارات التهذيب دون أن يعرف بعضهم بعضاً، ودون أن يحب أحدهم الآخر أحياناً.

هنا تتشكل اجتماعات جميلة، تتبعها أطباق العشاء اللذيذة والتي تنقضي بالاستهزاء وبالنم عن امرأة، والحديث عن مغامرات متكلفة، والسخرية بعضهم من بعض.

4- بعيداً يوجد صالونات مضيئة ومشعة، نضحك ونبكي في بعضها، ونغني ونرقص في بعضها الآخر، في

مناطق أخرى ننتقد ونناقش ونجادل، وفي أغلب الأحيان دون أن نعرف السبب.

5- هنا، تقيم اللباقة إمبراطوريتها، يحدق الحبّ بها، ويثير الغنج فيها إغواءه، تظهر المتعة في كلّ مكان، لكن الملل القاسي يبدو في كلّ مكان مختبئاً خلف المتعة، كم من عاشقين مشتركين هناك، وما أندر العاشقين المخلصين! نتحدث عن المشاعر طول الوقت، لكن القلب لا يشهد على الحديث.

6- لن أخبركَ شيئاً عن الحجرات المظلمة، والمفروشة بآرائك الواسعة، ودواوين طرية، أنت تعرف لم تستخدم، نقوم بتجديدها غالباً، كأنَّ شغلنا الشاغل هو إرهاقها.

7- تتألفُ المكتبة العامَّة من كلّ ما كتب عن الحبّ وأسراره ابتداءً من Anacréon وانتهاءً ب Mrivaux، وهي تتضمن أرشيف Cythère، نرى فيها تماثيل الملكة،Navarre وMeursius و-Boc

cace وla fontaine مزينة بالرياحين، نتأمل فيها Les Mariannes وLesAcajou والكثير غيرها من الترهات، يقرأ فيها الصبية الصغار، أمَّا الصبايا فتقرأن بشغف مغامرات الغزل للأب Saturrnin؛ لأنَّ الحكمة هنا تقول إنَّنا لا نستطيع أن نزينَ وننير العقل على عمر مبكر.

8- مع أنَّهم يولون جلَّ اهتمامهم للتطبيق العمليّ أكثر من النظريّ إلا إنَّهم يعتقدون أنَّه لا يمكن إهمال الجانب النظريّ، كثيرة هي المناسبات حيث علينا أن نفاجئ يقظة أم أو نخفف غيرة زوج أو شكوك عاشق؛ حيث يصعب التزود بكثير من المبادئ، وبذلك فإنَّنا نستحق الثناء في درب الأزهار بهذا الخصوص، ومع ذلك فإنَّنا نضحك كثيراً في هذا الدرب، ونفكر قليلاً؛ إنَّ ذلك أشبه بدوامة تسير بسرعة لا تصدق، لا يشغلنا سوى أن نستمتع داخلها أو أن نربك الآخرين في تلك المتعة.

9- كلُّ المسافرين يمشون في هذا الدرب إلى الخلف،

غير قلقين من الطريق الذي سلكوه، يشغلهم فقط إتمام ما بقي عليهم من مسير بكلّ سرور؛ منهم من يلمس أبواب الحامية، ويؤكدون أنَّهم بدؤوا طريقهم للتو.

10- ما يحدد مسار هذا المجتمع غير المبالي، هو عدد من النساء الساحرات بفنهم أو برغبتهم أن يكن موضع إعجاب؛ واحدة تتفاخر بعدد عشاقها، وترغب أن يكون الناس على علم بذلك، وأخرى يطيب لها أن تصنع الكثير من السعداء، على أن يتم تجاهل هذه السعادة، واحدة تعد بنعمها لألف رجل، وهي في الحقيقة لن تعطيها سوى لرجل واحد؛ كلّ ذلك لصالح سر وحيد لا يحفظه أحد، فمن المضحك تجاهل مغامرات امرأة، حيث جرت العادة أن نضخم هذا العدد عند الحاجة.

11- هنا يجتمع الناس المرحون، والمغامرون يتحدثون عن كلّ شيء دون أن يعرفوا شيئاً أحياناً، يعطون اللا شيء مظهر البارع والدقيق، ماهرون في إغواء جميلة من خلال القضاء على خصومهم، ينتقلون من حديث جديّ إلى

سرد رواية عن مغامرة، أو حدث ما يلقي بهم -لا أعرف كيف- للاستماع لنغم جميل، ثم ليقطعوه للحديث عن السياسة، يستطيعون استنتاج أفكار عميقة عن تسريحة شعر أو فستان أو magot de la Chine[1] أو إناء من الخزف...

12- هؤلاء الناس ضلوا الطريق في درب الأزهار، بما أنَّهم جميعهم هاربون من درب الأشواك فهم لا يسمعون صوت المرشدين دون أن يعتريهم الخوف، لذلك في بعض أوقات السنة تصبح الحديقة المسحورة مهجورة تقريباً، والذين كانوا يتنزهون في هذه الحديقة يذهبون للتوبة في درب الأشواك، ومنه يسارعون في العودة ليتوبوا من جديد.

13- عصابتهم تزعجهم كثيراً، فهم يقضون جزءاً من حياتهم في البحث عن وسائل لتكون مريحة؛ إنَّه نوع

(1) هو تمثالٌ صينيّ تكون فيه أبعاد الرأس أكبر من المألوف، وهو يمثل شخصيَّة الراهب الناسك.

من التمرين من خلاله يتلقون بعض أشعة الضوء التي تمر سريعاً، لا يمتلكون نظراً قوياً ليتحملوا ضوء النهار الشديد، لذلك فهم ينظرون شزراً، كمن يختلس النظر.

لا شيء جدي يدخل رؤوس هؤلاء، تكفي كلمة نظام لترعبهم، إن قبلوا بوجود الأمير، فذلك دون أن يؤثر على سعادتهم، بالنسبة لهم الفيلسوف الذي يفكر ويتعمق بتفكيره هو كائن ممل وثقيل الظل.

ذات يوم كنت أريد أن أخبر Thémire عن أبحاثنا الرائعة، التفتت نحوي بعينين سقيمتين وقالت: توقف عن مضايقتي، فكر في سعادتك واصنع سعادتي، أطعتها فبدت لي سعيدة بهذا الرجل قليل الفلسفة.

14- ثوبهم في حالة مثيرة للشفقة، يقومون بغسله من وقت لآخر، ولكن هذا التنظيف لا يدوم طويلاً، فالأمر لا يتعدى اللباقة كأنَّ غايتهم الأساسيَّة هي زخرفة الثوب بكم هائل من البقع لدرجة أنَّه لم يعد يعرف لونه الأصلي،

لن يعجب هذا السلوك الأمير، وبالرغم من وهم المتع فلا بدَّ من الريبة ببعض الأشياء في هذا الدرب لأنَّه وإن كان الأكثر كثافة من حيث السكان، إلا أنَّه بدأ يخلو من سكانه حتى الثلثين، ولا نرى عند نهايته سوى البعض منَّا الذين يأتون للاستراحة قليلاً، فهو مكان محبب، ومع ذلك يجب عدم البقاء طويلاً؛ لأنَّ كلَّ ما يوجد فيه يدوخ، والذين يموتون في هذا الدرب يموتون مجانين.

15- لا يدهشك أنَّ الوقتَ يمرُّ سريعاً جداً بالنسبة لهم، ويشعرون بالأسف الشديد لتركه، لقد سبق وأخبرتك أنَّ كلَّ شيء فيه له طابع سحريّ، فهو يمثل إقامة مرحة لبقة، قد نعتبر جميع السكان أناساً صادقين وشرفاء، وحدها التجربة هي التي تنجيك من الخطأ وتأتي متأخرة جداً أحياناً.

أعترفُ أنَّني كنتُ مغفلاً مئة مرة قبل أن أتمكن من معرفة هذا العالم وأن أحذر منه، لم يكن لي ذلك إلا بعد العديد من الخداع والنكران، حتى استطعت التخلص

من الحماقة، بما أنّني أعتبرك رجلاً شريفاً ويمكنك ذات يوم أن تختبر أن تكون أحمق مثلي، فإنّي سأخبرك بعض المغامرات التي ستغني معرفتك دون شك، وتسليك ربما، إذن استمع واحكم على عشيقتك وأصدقائك ومعارفك.

16- التقيتُ منذ فترة بشخصين يقيمان في أجمة صغيرة بعيدة عن هذا الدرب، هما: Agénor أحد رجال الحاشية الملكيَّة والشابة Phédime.

Agénor متعب من الوعود، متخل عن البلاط وعن كلّ أشكال التكريم، قال إنَّ نزوات الأمير وظلم وزرائه أبعدته عن المتاهة التي كان يحاول التقدم فيها عبثاً، وبعبارة مختصرة لقد شهد على تعجرف الكبار.

من جانبها Phédime فهي لم تحتفظ إلا برابط وحيد هو تعلقها بـ Agénor، كلاهما قررا الانسحاب من العالم والتسلل إلى وحدة الحبّ الأبديّ، ولقد سمعتهم

يقولون بعلو الصوت: كم نحن سعداء! أيّ هناء يعادل ما نشعر به، أماكن يملؤها السحر، كلّ شيء يعبق بالرخاء والحريَّة.

تلك الألواح الخشبيَّة التي هجرناها هل تعادل ظلالكم؟ أيّتها الأشجار المذهبة التي طالما علت أناتنا تحت ظلالها، والتي لا نشعر بثقلها إلا عندما نفقد الإحساس بالأشياء، أيّها النير اللامع الذي نفتخر بحمله، كم يسهل الآن تحريكك!

أحرار من كل قلق، ها نحن نسبح في بحر من الملذات حيث تتابع التسالي، ويرفض الملل أن يسكب علينا سمه؛ تلك الواجبات الملحة، والاهتمامات القسريَّة، والاعتبارات الزائفة جميعها لم تعد هاجسا لدينا.

كم أصبحت أوقاتنا مختلفة عن تلك الأيام المسخرة لاستعمالات سخيفة أو لأذواق غريبة!

لو أنَّ أيامنا الجديدة بدأت من قبل أو لو أنَّنا خالدون!

ولكن لمَ الاهتمام باللحظة الراهنة؟ لنسرع ونستمتع بها.

17- قال Agénor: سعادتي مكتوبة في عينيك، لن أبتعد عن غاليتي أبداً، أحلف بهاتين العينين، سرير من الأزهار أتقاسمه معك، أنت عرش الحبّ وكلّ عروش الملوك لا تساويك.

18- أجابت Phédime: لا شيء عندي يعادل امتلاكي لقلبك، أنت وحدك عرفت كيف تجذبني واستطعت التغلب على اشمئزازي من العزلة، رأيت لهيبك وإخلاصك و ثباتك، فتركت كلّ شيء ووجدت أنَّ ما تركته ليس بشيء.

أيّها الحنون والعزيز والصديق، أنت وحدك تكفيني، أريد أن أحيا وأموت معك، هذه الوحدة كانت موحشة بقدر ما هي مضحكة، أيتوجب على تلك الحدائق أن تتحول إلى صحارى!

هل بإمكان إخلاصي وقلبي ورقتي وملذات الحبّ

المتبادل أن تعوضك عن تضحياتك نحوي؟ ولكن للأسف سوف تنتهي هذه الملذات، إنَّ عزائي الوحيد أن أشعر بيدك تغلق عيني وألفظ أنفاسي بين ذراعيك.

19- بعد أن لامست Agénor أرق المشاعر في حضن Phédime ابتعد عنها، ولكنَّه كان يتوجب عليه أن يعود ليجدها حيث تركها بين الأزهار، إلا أنَّه ركب عربة كان ينتظرها أقلته بسرعة البرق إلى بلاط الأمير، كان يطالب منذ وقت طويل بمكان مهم في البلاط ، نفوذه وحيله و الهدايا النفيسة للوزراء ورجالهم ومكائد النساء اللواتي خططن لنزعه من عشيقته، كلّ ذلك جعله يحصل على مراده حيث وصلته رسائل تعلن انتصاره قبل لحظات من بدء حديثه الرقيق مع عشيقته الذي نقلته لك للتو.

20- ابتعد Agénor ليأتي خصماً لم ينتظر إلا رحيله ليحلّ مكانه مجتازاً أجمة كان يختبئ خلفها، ويرتمي بين أحضان Phédime؛ هذا القادم الجديد تملك قلبها

وبادلته العطف والحنان.

21- إنَّك ترى ما هي حقيقة العشاق، استمع واحكم على صدق هذه العلاقات.

22- كانت Bélise الصديقة المقربة لـ Caliste كانتا عازبتين، مفعمتين بالصبا، ويعشقهما الآلاف من الشباب، مصممتين على اتباع طريق الملذات، لا تفترقان أبداً، فهما معاً في الحفلات والنزهات وفي صالات الأوبرا، كانتا -ما يمكن تسميته- اللتين لا يمكن فصل الواحدة عن الأخرى، تتباحثان في جميع القضايا المهمة، فلا يمكن لـ Bélise أن تشتري شيئاً دون موافقة صديقتها، ولا يمكن لـ Caliste أن تذهب إلى محل المجوهرات دون اصطحاب Bélise، كانتا تتشاركان الطعام والحفلات واللعب وكلّ شيء.

23- كان Criton صديقاً لـ Alcippe؛ صديق جميع الأوقات، لهما نفس المواهب والأذواق والميول، يبدو

أنَّ كلَّ شيء مهيأ لترتيب هذه العلاقة والسعي لتوثيقها، بينما كان Criton متزوجاً، كان Alcippe أعزب.

24- Bélise و Criton تربطهما صداقة، في إحدى المرات زار Criton صديقته، دار الحديث حول موضوع الصداقة، بحثا فكرة المشاعر، فكانا مثالاً لإحساس عالٍ، ولطف مبالغ به.

قالت Bélise: إنَّها لمتعة حقيقة أن نستطيع أن نؤكد لأنفسنا أنَّنا نمتلك أصدقاء، وأنَّنا نستحق فعلاً أصدقاء حقيقيين، ولكن غالباً ما ندفع ثمن ذلك غالياً، ثم أضافت: لم أشعر إلا كم يكلف أن يكون لديك قلب رقيق كالذي أمتلكه، كم من الهواجس، كم من القلق، كم من الهموم! نحن لسنا أسياد تلك الانفعالات...

25- أجاب Criton: أيزعجك يا سيدتي أن تكون لديك روحاً بهذا الجمال؟ إن كان من الممكن الحديث عن نفسي لقلت مثلك إنَّ ذلك مستحيل أن أمتنع عن محبة

أصدقائي، وأعترف أنِّي أشعر بعذوبة أن أجد روحي ممزقة بين رغباتهم، ولكن أليس هذا ما ينقصهم بشكل رئيس، فهم يبطئون في انفعالاتهم في بعض الظروف؟

26- أجابت Bélise: ما لم أستطع تصوره هو كيف لهذا العالم أن يمتلئ بأرواح شريرة يكسوها الغدر والخبث والمصلحة والخيانة ومئات النوازع البشعة بعيداً عن النزاهة وشرف الصداقة، ها أنا في مزاج سيء، تحدث أمامي الكثير من الأمور تجعلني أشعر بالريبة تجاه أعز أصدقائي.

27- بالنسبة لي فلا أريد أن أضع نفسي في مبالغة من هذا النوع، أفضل أن أكون مغفلاً ضحية لمخادع على أن أكون مسيئاً لصديق، ولكن لأجنب نفسي ذلك، فإنِّي أدرس وأتقصى الناس جيداً قبل أن أدخل في علاقة معهم، وإنِّي أحذر على وجه الخصوص هؤلاء الدماث الذين يتوددون إليك بتملق، فيحطون من قدر الود واللطف بالإفراط والمبالغة، و يريدون بأيّ ثمن

أن يصبحوا أصدقاء لك وهم لا يعرفون عنك سوى إن كنت غنياً ومتصدقاً ومحسناً أو إن كان لديك طباخ ماهر وامرأة جميلة أو ابنة...هل هناك أفظع من أن يندس المرء في بيت رجل لإغواء زوجته؟

هذا لا يعني أنَّ المرء لا تربطه بالآخرين مشاعر حتى إنَّنا لا يمكننا العيش في هذا العالم من دون تلك الأمور، ولكن أن تتعدى على امرأة صديقك، فذلك ظلام القلوب وانحطاط الأخلاق؛ إنَّه شرّ لا يعادله شر.

28- تابعت Bélise: أعتقد أنِّي أجد الوجه الآخر لذلك الرجل، جريمة أخرى أمقتها بشدّة تكشف عن زوال الشرف والنزاهة، وهي مناورات امرأة لتنتزع حبيب صديقتها ليصبح عشيقها؛ إنَّ ذلك فعل شيطانيّ، علينا أن نجتث كلّ هذه المشاعر وأن ننكر كلّ ما يمس الحشمة.

29- قال Criton: سيدتي، أنت تعلمين كيفيَّة

التعامل مع هؤلاء السفلة.

30- نعم، نستقبلهم ونحسن ضيافتهم ولكن كلّ ما في الأمر أنّنا لا نفكر بهم.

31- وأنا أعتقد أنَّ العالم يمتلك ذاكرة جيدة، وأنَّ هؤلاء الوحوش سينفون من جميع المجتمعات التي تعدّ الفضائل ركيزة لها حيث تسود الاستقامة والنوايا الصادقة.

32- قالت Bélise: أتفق معك تماماً، أعتقد أنّنا لن نقابل أمثالهم هنا، آه، كم نحن متوافقون!

33- أضاف Criton: منذ أن تفضلت عليّ بقبولي في عالمك، بذلت كلّ جهدي لأثبت الفضائل التي أكرمتموني بها من خلال التزام يصون النزاهة والاستقامة، مشاعري يحكمها المنطق، أتصرف مستنداً على المبادئ؛ لأنَّ ما أقدره هو المبادئ، فهي شرط لازم ومن تنقصه المبادئ فهو ليس أهلاً لأيّ ارتباط أو التزام.

34- أضافت Bélise: هذا ما ندعوه بالتفكير، نادرون من هم مثلك، وكم علينا أن نرقى بالتعامل معهم لنحافظ عليهم، كم سعادتنا كبيرة بلقائهم! وإنِّي لأعترف لك أنَّ مشاعرك تلك لا تفاجئني البتة، يسحرني فقط تطابقها مع مشاعري، قد أغار منها لو أنِّي لا أعلم أنَّ الفضائل لا تنقص عندما تتواجد عند أكثر من شخص، وإنَّما تزداد قيمة بالتواصل بنقاشات كالتي تدور بيننا الآن.

35- إنَّه في نقاشات كهذه صادقة وعفويَّة تتنامى الأرواح الأصيلة الواحدة مع الأخرى، وهذا ما يشكل لذة الصداقة التي لا يمكن أن تكون مخلوقة إلا من أجل هذه الأرواح.

36- أرغب حقاً أن أعرف رأيك بهؤلاء الناس، أعتقد أنَّ تجربة Phédime وAgénor جعلتك تحذر، وبذلك تحمي نفسك بالتمسك بالمبادئ وأنت محق.

37- ما إن ترك Criton صديقته Bélise حتى جاء Damis، كان شاباً غنياً ووسيماً موعوداً بخطبة Caliste، قال لـ Bélise: هل تعلمين، إنَّ الحسناء Caliste ستكون مصدر سعادتي بعد يومين، هل يمكن أن أسمح لنفسي بدعوتك لمرافقتي عند عائلة La Frenaye ؟ العربة جاهزة في ساحتك.

38- أجابت Bélise: بكل طيب خاطر، ثم صعدوا العربة، وأثناء الطريق بدأت Bélise بتقديم الثناء ل Caliste: ليتك تعرفها مثلي! إنَّها حقا أفضل مخلوق في هذا العالم، كان يمكن أن تكون مثاليَّة لو...

-قاطعها Damis: لو كانت أقلّ انفعالاً وحيويَّة...

-ليس الأمر متعلق فقط بالانفعال والحيويَّة، لكلّ عيوبه، إلا أنَّ طبعها غير المتوازن وطبع الفكاهة التي يتملكها معظم الأوقات، لم يمنعني من أن أكون صديقتها منذ عشرات السنين، وتبقى في نظري الألطف،

لقد تجاوزت كلّ تلك الجزئيات الصغيرة، ولكنّني لطالما رغبت أن أنزع عنها ذاك الطبع الطائش الذي يضعها في موقع الخطأ فأنا أحبّها جداً.

39- كيف ذلك، ومن الذي أساء لها؟

-إنَّ هذا الطبع الطائش، والذي لا يجلب الاحترام، قدم لبعض الأوغاد أكثر من وعود...

40- أجاب Damis وقد اعترته موجة من الغيرة: أكثر من وعود! هل تلعب Caliste معي دور البريئة؟

41- أنا لم أقل هذا، ولكن حاول أن ترى وتدرس الأمر لأنَّ الالتزام مدى الحياة هو مشروع يستحق التفكير.

42- إن كنت أستحق بعضاً من جودك، فأنا أرجوك ألا تتركيني جاهلاً بأمور تخص سعادتي، هل يمكن أن تكون قد أخطأت بحق نفسها؟

43- لم أقل ذلك، ولكن فاجأني أنَّك غير مطلع على الأمور أكثر، لكن الزواج يفعل ما لا يمكن أن يفعله العقل والمنطق.

44- وصلوا لعند Frenaye: اختارت Bélise بعض الجواهر ودفع Damis دون مماحكة، كثيرة هي الأفكار التي شغلت بالـ Damis واستولت الشكوك على قلبه، وتشوهت صورة Caliste بشكل كبير، ثم قال في نفسه إنَّ هناك خفايا ما باعتبار أنَّ صديقتها لا تتوقف عن الكلام عليها.

الحذر واجب، ولكن هل تصغي الغيرة للنصائح؟ وما أن صعدوا في طريق العودة حتى بدأت Bélise بمضايقته مستخدمة كلّ طاقاتها دون خجل حتى انقلب رأس Damis منتزعة منه كلّ الوعود إلى أن ترجاها أن تقبل الهدايا التي كانت مخصصة لـ Caliste وأصبحت في النهاية زوجته.

45- بينما كانت هذه الخيانة تحصل، Criton المخلص بعد علمه بأن Alcippe قد غادر وحيداً إلى الريف توجه إلى بيت صديقه وأمضى ليلتين أو ثلاث في أحضان زوجته ثم ذهب معها في اليوم التالي للقاء صديقه دون أن يفتها إغداقه بالعطف والحنان؛ هؤلاء هم أصدقاؤنا الطيبون.

46- لقد ألزمت نفسي بتقديم هذه الإيضاحات بفضل معارفنا، وسأصدقك الكلام.

47- كنتُ ذات يوم مع Eros، تعلم كم كلفه أن يشغل وظيفة القيم على شؤون القصر من تعب واستجداء ومال من دون أن يحصل على هذه الوظيفة، كم من الأبواب وجب عليه قرعها والمناورات التي سخرها من أجل ذلك، ربّما تجهل كيف سُلِبَت هذه الوظيفة منه، استمع واحكم على ما تبقى من سكان درب الأزهار.

48- كنّا نتنزه أنا وEros، يخبرني عن مساعيه عندما

صادفنا Narcès، استطعت أن أحكم على العلاقة بينهما بالوثيقة من خلال عناقهما، قال له Narcès بعد السلام: حسناً، ماذا عن أعمالك ؟

- لقد أنجزت تقريباً، ولقد نفذت كلَّ شيء بنجاح، وأعول الحصول على الوظيفة غداً.

- أجاب Nacrès: إنَّ ذلك يسعدني حقاً، إنَّك رجل رائع، تدير أعمالك بكلّ اتزان ورزانة، سمعتهم يقولون إنَّ الوزير وعدك بالوظيفة، وإنَّ الدوقة Victoria قد تكلمت من أجلك، ولكن لا أخفي عنك أنَّي كنت أعتقد أنَّك ستخفق، فالعقبات أمامك كثيرة، وأتساءل كيف استطعت الخروج من هذه المتاهة؟

49- أجاب Eros ببراءة: اعتقدتُ أنَّي خلقت لأطالب بمكان طالما شغله أبي ولم نخسر ذلك المكان إلا لأنَّ أبي مات، وأنا في عمر صغير لا يحق لي أن أخلفه، لقد اغتنمت الفرص وكانت عديدة، استخدمت خادم

الوزير لصالحي واستطعت التودد له، كنت هناك عند موت Méostris، علمت أنَّ الجميع يحاول الحصول على مكانه، وكنت بين المتنافسين.

قابلت رجلاً من الريف كان قريباً لمدبرة شؤون مربية الأمير، مشيت مع التيار حتى استطعت الوصول للمربية والتي بدورها تعهدت أن تتكلم من أجلي، ولكن العلاقات كانت قد قطعت. نجاتي كانت مع الراقصة Astérie.

كان ذلك هو الباب الذي عليَّ قرعه، كانت علاقتها مع الوزير حديثة العهد، وبذلك فهو سيمنحها أيّ شيء تطلبه.

50- وإلى ماذا أفضت هذه العلاقة؟

51- أجاب Eros: كلّ ما كنت أنتظره، أحد حلفائي جاء لعند Astérie ، وقدم لها مائتي قطعة نقديَّة، ولكنَّها طالبت بأربع مائة، وكان لها ذلك، وبهذا السعر انظر أين

أنا الآن.

52- أجاب Narcès: إنَّ هذا المكان مخصص لك سيدي القيم على شؤون القصر، إلا إذا تقدّم أحدهم بعرض أفضل.

53- لا يمكن لهذا أن يحدث، فأنت الوحيد الذي بحت له بذلك، وأنا واثقة بكتمانك السر...

- أجاب Narcès: تستطيع الاعتماد عليَّ، ولكن أجبني بما يتعلق بكتمانك أنت، عليك أن تكون أكثر تحفظاً، ففي أغلب الأحيان لا نعرف من يمكن الوثوق به، فكل هؤلاء الذين نعدّهم أصدقاء هم في الحقيقة غير ذلك.

54- ألقى Narcès التحية واختفى، كان رأياً رائعاً من رجل نتمنى لو كان صالحاً لتدوم بينهما العلاقة، توجه هذا الخائن في اللحظة ذاتها لعند الغانية، وقدَّم لها ستمائة قطعة نقديَّة، وبهذا انتصر على Eros .

55- تلك هي السخافات والرذائل في درب الأزهار، وتلك هي مباهج الحياة أيضاً، الدخول إلى درب الأزهار غير ممنوع، فذلك بمثابة نزهة، ننظر إليها كأنَّها وقاية من الهواء البارد الذي نتنفسه تحت الظلال.

56- ذات مساء كنت أبحث عن الاسترخاء والتسلية، اقتربت من بعض النساء اللواتي كن ينظرن إليّ من خلال شال شفاف كان يغطي وجوههن، وجدتهن جميلات، ولكن غير محببات. تعلقت بواحدة سمراء، كانت تجول بعينيها الكبيرتين نحوي خلسة، قلت لها: برفقة لطيفة مع وجه كوجهك، لا بدَّ لنا أن نكسب ودك.

- أجابتني: أرجوك أن تبتعد، لا يمكنني الاستماع إلى كلامك المتحرر، فالأمير يراني والمرشد يراقبني، لدينا سمعة علينا الحفاظ عليها ومستقبل علينا أن نخشى عليه وثوب علينا الاعتناء به دون بقع، ابتعد فضلاً أو غير حديثك.

57- أجبتها: كيف خرجت من درب الأشواك بكلّ ما لديك من ذمة وضمير، هل أسمح لنفسي بسؤالك ما الذي جاء بك إلى هنا؟

- أجابتني مبتسمة: لهداية - إن أمكن - أمثالك من الأشرار، لمحت في تلك اللحظة أحدهم قادماً، فاستعادت فجأة هيئتها المتواضعة والجدية، ثم أطرقت وصمتت ثم اختفت وتركتني وسط جموع من شابات يضحكن ملء أشداقهن، يزعجن المارة والمسافرين.

58- لحقت بهن، سريعاً ما قدموا لي الوعود، قالت لي إحداهن: «هل ترى هذه الشجرة؟ حسنا، عندما نصل إليها...» في نفس الوقت أشارت إلى شجرة أخرى لرجل شاب، كانت قد اقتادته من بعيد، ثم انتقلنا لشجرة ثانية وثالثة وأخيراً إلى بستان يعد بالراحة، ومنه إلى آخر أكثر راحة. قلت في نفسي: من شجرة لأخرى ومن بستان لآخر أستطيع اللحاق بهؤلاء المجانين حتى الوصول إلى الحامية دون الحصول على أقل ثمن لتعبي.

عند التفكير بهذه الطريقة تركتهن فجأة، وتوجهت نحو شابة جميلة بملامح فاتنة أكثر من كونها متناسقة، كانت فتاة شقراء، ولكن من هؤلاء الشقراوات اللاتي يتوجب على الفيلسوف أن يتجنبهن، لم أر في حياتي ألواناً تضج بالحياة، وبشرة مفعمة بالحيويَّة كما تبدو عندها، بتسريحة بسيطة تغطيها قبعة من القش بلون ورديّ، وعينين مشرقتين لا توحيان سوى بالرغبة؛ كان حديثها يكشف عن فكر منمق، كانت تحبّ أن تفكر بمنطق، ويمكن القول عنها منطقيَّة ما إن بدأ الحديث بيننا حتى وقعنا في فصل الملذات؛ إنَّه القضيَّة الكليَّة، والمادة التي لا تنفد.

59- أؤكد بشدة أنَّ الأمير كان قد نهانا عن ذلك، وحتى الطبيعة وضعت حدوداً له.

قالت لي: لا أعرف أميرك هذا، ولكنَّه خالق ومحرك كلّ الكائنات، وهو طيب وحكيم كما يقولون، أليس هو من وضع فينا هذه الأحاسيس اللطيفة ليعذبنا من

خلالها؟ يقال إنَّه لم يفعل شيئاً دون سبب، فما هو الهدف من الحاجات والرغبات إلا أن نكون راضين؟

60- أجبتها: ربَّما اقترح علينا الأمير هذا السحر لنكافحه، ونستحق بالنتيجة المكافأة.

قالت لي: ضع في كفتي الميزان الحاضر الذي أنعم به والمستقبل المشكوك بأمره والذي تعدني به وقرر من يفوز، لاحظت ارتباكي ثم تابعت: سوف تنصحني أن أكون بائسة بانتظار سعادة قد لا تأتي أبداً، وإن كانت هذه القوانين التي تريدني أن أحرق نفسي حيَّة من أجلها يمليها المنطق! إنَّها كومة من الغرائب التي يبدو أنَّها صنعت فقط من أجل وضع خالقي في تناقض مع ذاته. بعد أن توقفت لفترة تابعت كلامها: أرتبط برجل واحد بشكل لا رجعة فيه، أرغمه دون جدوى النجاة، يعترف حينها بضعفه دون أن يعدل عن ادعاءاته، يعترف بهزيمته، ولكن لا يمكنه أن يتحمل المساعدة التي تضمن انتصاره، وعندما تخذله قواه ماذا يفعل، يقابلني بأحكامه

المسبقة؟ توقفنا عند هذا الحد وفي هذه اللحظة وجهت نحوي نظرة شغف، فمددت يدي لها واقتدتها إلى غرفة يكسوها الاخضرار، هناك جعلتها تجد حججها بوجه أفضل بكثير ممًا تتخيل.

61- اعتقدنا أنفسنا في مأمن بعيداً عن أيّ رقيب حين لمحنا عبر الأوراق بعض النساء اللواتي يتكلفن الحشمة يصحبهن مرشدان اثنان أو ثلاثة، قلت لها بصوت منخفض: ماذا تخشين؟

الجدير بهؤلاء القديسات أن يدعن أفكارهن المسبقة لميولهن، سيشعرن في أعماق أرواحهن بالفضيحة أقلّ من كونهن غيورات ممّا تشعرين به من ملذات، ليس أمامنا إلا أن نهددهن بكشف حقيقة مرافقيهن، أظهرت Céphise قبولاً عمّا قدمته من تبرير، ثم قبلت يدها وافترقنا، هي لتسرق ملذات جديدة، وأنا لأحلم تحت وافر ظلالنا.

الفهرس

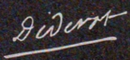


La Promenade du

نزهة المرتاب

كتب ديدرو هذا الكتاب في عام 1747، والذي يتحدث عن حوار بين ربوبي وملحد وتوحيدي حول طبيعة الإلوهية، فيعطي الربوبي الحجة في التصميم، ويقول الملحد بأن تفسير الكون أفضل في الفيزياء والكيمياء والمادة والحركة، أما التوحيدي فيقول بأن الوحدة الكونية للعقل والمادة يتشاركان ويضمنان الكون، وهو الله.

بقي هذا العمل من دون نشر حتى عام 1830؛ وذلك بسبب مصادرة الشرطة المحلية للمخطوطة أو إجبار ديدرو بالتعهد بعدم النشر.






ISBN 978-91-89760-66-0
9 789189 760660





